AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

U.B. LIBRARY

هيئة خريجي القسم الانجلزى
من جامعة فؤاد الأول

مصطفى طه حبيب

سلامه حماد

822.33
H116sA

شاعر الكون

وليم شكسبير

67857

الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

القاهرة
مطبعة التوكل بالجماميز
١٩٤٤

He was of his age
He was also of the ages

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لعل كاتباً لم يلق ما لقى شكسبير من تمجيد وتعظيم وذيوع صيت ، نقلت كتاباته إلى سائر لغات الدنيا وتناوله الكتاب جيلا بعد جيل بالبحث والدرس والتحليل . ولقد خطت أقلام العباقرة وجادت قرائح الموهوبين بالشيء الكثير ولكن أحداً من هؤلاء المخلدين لم يسم إلى ما سما اليه شاعر الكون فستبق كتاباته مدى الدهر روضاً فسيح الرحبات يمرح فى خمائله الخيال وينهل من مورده العذب حس الجمال

وإذا كان الانسان هو جوهر الكون فان شاعرنا لم يترك صغيرة ولا كبيرة فى خلق الانسان وطبعه وتكوينه إلا صورها تصويراً رائعاً فيه حيوية وصدق حتى أصبحت كتاباته سجلا صادقا لجوهر الطبيعة الانسانية أينما كانت

من أجل هذا كان خلود شكسبير

ومن أجل هذا حرصنا على أن يكون باكورة إنتاج هيئتنا الفتية هذا البحث عن شكسبير

وإننا ونحن نقدم كتابنا الذى نعتقد أنه الأول من نوعه كدراسة كاملة وافية فى لغتنا عن شاعر الكون نرجو أن نوفى بعض ما علينا من حقوق نحو اللغة وطالب الأدب والله ولى التوفيق .

رئيس الهيئة

نوفمبر سنة ١٩٤٤

محمد فتحى

الفصل الأول

مهد العبقرية

منذ أربعة قرون تنفس صبح الحياة فى بلدة من بلاد الريف الانجليزى عن مولد فتى لاسرة تجرى فى معمعان الحياة جريان الاسر التى لا تنتمى الى عراقة أصل يوفر لها من أسباب النعيم الموروث ما يدفعها فى خضم الحياة ثابتة القدم نائية عن التفكير فى مر أو حلو فالحياة لديها راتبة النعيم دانية القطوف ميالة الاعطاف لا تدعو الى جد ولا تستثير الى همة . . . ولا هى من الأسر المعروقة المكدودة التى لا تعرف من الوان الحياة الا الشظف فى العيش والخشونة فى المظهر والرقة فى الحال . . . تنفس صبح اليوم الثالث والعشرين من شهر ابريل سنة الف وخمسمائة واربعة وستين عن مولد غلام لأسرة متوسطة الحال فى بلدة استرانفورد على نهر الآفون . . . ولم يكن هذا الوليد غلام الأسرة الأول بل سبقه الى الوجود اثنان فلم يكن مولده محل حفاوة ولا موضع اعتبار بل مر عابرا أو أقل من العابر كما تمر ملايين المواليد فى

كل عام وفى كل جيل . . . وماذا يهم الناس من مولد غلام لرجل متوسط الحال أو لرجل غنى دهمته الأحداث وعفت على ثروته ومجده خطوب الزمن التى لاترحم

ولد هذا الغلام فى غير ضجة ولم تحط مولده مراسم ولا سبقته علامات ولا ارهاصات وما فكر انسان ان هذا المخلوق العاثر سيصبح اسمه فى فم الزمن عنوانا على المجد الخالد والعبقرية الفذة — ولو ان الاقدار كشفت عن خبيئة سرها المكنون لكان أمر هذا الغلام قدتبدل من الاغلاق الذى أطبق على طفولته والظلام الذى خيم على أيامه الاولى الى نور وضاح يكشف تفاصيل حياته ويوضح خطواته فى اسهاب واعجاب ولكنها الأقدار أبت أن تميط اللثام عن لوحها المحفوظ فتركت الناس على سجيتهم تتداول ايديهم جوهرة من أنفس الجواهر فى غير مبالاة ولا حرص عليها بل تركت هذه الجوهرة تتقاذفها الايدى وتركلها الأرجل فما تعهدها انسان بصقل ولا سهر على صيانتها وحفظها مخلوق . . . . وان يكن قد أصابها تنميق أو صقل فهو تنميق خشن وصقل بدائى لا يظهر حسنا ولا يجلو رونقا وحتى هذا

الأعداد البدائى مشكوك فيه لا يكاد يجد من يدعمه

* ولد هذا الطفل فى قرية استرانفورد على نهر الآفون فتفتحت عينه كما تفتحت آلاف العيون من قبله على مناظر خلابة وشت بها الطبيعة السخية حواشى هذه القرية الجميلة . . . ولد فى قلب الريف الانجليزى الجميل تداعب أذنه زقزقة الطيور وأغاريد العصافير ويهز أعطافه خرير الماء يندفع فى موسيقى حلوة هادئة بين شطئان نهر الآفون الجميل . .

* ترعرع الفتى فى ظل ممدود من رعاية أب تبسم له الدهر فاقبلت عليه الأيام على عهدها تناجيه وتناغيه وتبسط له من ظلها الوارف وقاية ضد الحدثان أمنت له عيشه ويسرت له رزقه واسعدته بالزوج الغنى وارثة الضياع واعزته بالمال والبنين حتى أضحى وهو المستأجر يتسنم فى خطى مسرعة ملحوظة درجات السلم نحو القمة والمجد فيملك الضياع ويصبح سيدا متصرفا وتاجراً نافقا يحرص على وده الناس

* فى هذا الجو الملىء بأسباب السعادة واليسر ترعرع الطفل ومشى بين جنبات الوديان الخصيبة حيث ضياع أبيه وأعمامه وتنقل من أكمام الأزهار المتفتحة الى حقول القمح الذهبية ومن

الغابات الخضراء والأحراش المتكاثفة الى المروج الخضر والمراعى الباسمة ومن التلال فى ولكوم الى الشطئان الشاعرية على ضفاف الآفون ....

بقعة من الجنان مفوفة الالوان تنطق بالحياة الزاخرة وترسم معالم الوجود الكاملة تتدرج فيها الطبيعة بين السهل والجبل وتنتقل من الوادى الى الغابة ومن التل إلى المنخفض ومن النهر إلى الحرش ومن المروج الخضر إلى البلقع الجدباء ، صور من الطبيعة متفاوتات والوان منها مختلفات قل أن تجتمع فى بقعة وندر أن تلتقى فى مكان . . . ولكنها فى سترانفورد قد التقت فلتة واجتمعت صدفة وكأنما التقاءها المباغت واجتماعها المفاجىء جاء منبئا بان الأقدار قد اختارت هذه البقعة الغريبة العجيبة لتكون منبت عبقر ومهد عبقرية . . . لئن زخرت الطبيعة فى هذه البيئة بما يصقل النفوس الحساسة ويملؤها جمالا والوانا ويهيئها للحياة الخصبة فقد جاد عليها الزمان بصنوف من المعالم وعديد من الحيوات تمد العين الفاحصة والأذن الواعية بشتى الصور الأخاذة التى تنطبع فى النفس فتترك فيها أثرا لا يمحى ويمتنوع من الاصوات وألاصداء تفعم الحس بموسيقى فياضة سلسالة تظل كامنة حتى تحركها عوامل

جديدة فتنطلق من عقالها حلوة طروبة تأخذ باللب وتملك مجامع القلوب

طفولة تنفتح للحياة كما ينفتح كم الزهرة تحت فيض من دفء الابوة وتحت فيض من جمال الحياة ورفتها . . . نسائم رقيقة وزهور جميلة ونهر وشجر وصيد وطراد . . وعبث وطفولة ناضجة فمن لعب باعشاش الطيور الكامنة فى قمم الشجر إلى امساك الفراشات الجميلة ذوات الالوان المتعددة الى مطاردة الغزلان فى غابة أردن المتاخمة لسترانفورد . . مناظر من الطبيعة الخلابة بهرت عين الفتى فى صبوته والصبى ابدا سن التلقى وسن الاستطلاع وما نأخذه فى الصبى يتعمق أثره فى الذاكرة ويظل معينا لا ينضب يوجه تجاربنا ويكيف أعمالنا مهما تقدمت بنا السن وتباعدت بيننا وبين بيئة المنبت مرافى الحياة

بيد أن البيئة بما حوته من متفاوت الالوان الطبيعية لم تكن وحدها التى أثرت فى فتانا وأنطقته بالسحر والجمال فالبيئة وحدها لا تكفى إذ لو كانت المسيطرة على أقدار الرجال الخالقة للمواهب الحافزة للهمم لحفزت استرانفورد همم الكثيرين من الآف الفتيان الذين مروا بها وترعرعوا فى أحضانها وسقوا الحياة بين

ورودها وتلالها ولما قصر همها على ذلك الفتى النحيل الذى ولد مغمورا وعاش حينا من الدهر منكورا حتى اذا أتمت الحياة دورتها واستدار الفلك أصبح شيئا مذكورا يملأ ذكره كل بيت وتتجاوب اسمه كل جماعة من مشرق الأرض الى مغربها

صحيح أن هذه الصور البارعة التى أضفتها يد الطبيعة على استرانفورد قد تجلى أثرها فيما ابدعته نفس هذا الفتى وصدر عنه من كتابات وصور فاسترانفورد بما فيها من فتنة وجمال طبيعة كانت الركاز لكل صورة ترسمها هذه النفس المحسة الزاخرة بالحياة وهذا أمر وجدانى لا يمكن ان يتخلف فنحن نعى بعيوننا ما يمر بنا من مشاهد ونحيط بآذاننا ما يدور حولنا من أصوات فاذا أحببنا ان نرسم المشهد أو نحاكى الصوت لم نلجأ الى الخيال الصرف طالما النفس الواعية فينا مليئة بشتى الصور وعديد الاصوات حفظتها على مر الأيام . وأبقتها كامنة حتى استثارتها الحاجة ودفعتها الى الظهور فلا عجب اذن ان يكون للبيئة أثرها فيما نعمل وفيما نتنح وانما العجب أن يكون البيئة وحدها هى الخالقة والمكونة للشخصية والمفتقة للعبقرية إذ لا بد الى جانب البيئة من عوامل أخرى تميز بين شخص وشخص عوامل لا تتوفر

لكل واحد من الناس ولا تتهيأ فى كل زمن من الأزمان عوامل تفسر هذا الشذوذ فى الاختيار وتفسر هذا القصر فى حبو فرد بكل مايتوفر لجيل بأكمله من مزايا حتى تحيله واحد زمانه بل واحد ازمان متعددة . . ولكن ماهى هذه العوامل أهى سر من الاسرار . . أجل هى سر من أسرار الوجود لا يوحى به الا الى الفرد العلم ولا ينفح بمغزاه الا فى الروح التى يقع عليها الاختيار لتبلغ رسالة العبقرية سواء أكانت تلك الرسالة نبوة أو شاعرية أو هداية أو خطابة أو سياسة أوزعامة أو بعثا

* ولد الفتى فى قرية إسترانفورد على نهر الآفون من أعمال انجلترا وترعرع فى احضان بيئته وهيئت له هذه البيئة المتصلة بين المدينة والقرية مشاهد متعددة وتجاريب مختلفة فهو قد فهم حياة المدينة كما فهم حياة القرية وأدرك ما بين الحياتين من تفاوت وهو لا شك قد استمع الى أقاصيص الفلاحين ووعى الأغانى الشعبية التى يتناشدها العامة جيلا بعد جيل وأبصر المواكب العامة بما تحويه من طرب وأهازيج ولا ريب انه فى طفولته هذه قد استفاد معارف عن الحياة وعن وسائلها وحفظ من الاساطير ما جمع حكمة الاوائل وتقاليدهم . . . وانا لنستطيع القول فى غير

تردد أن طفولة الفتى كانت طفولة خصبة حافلة بالألوان والصور مليئة بالمشاهد غاصة بالقصص والاساطير المنوعة كما نستطيع القول ان الطبيعة لعبت دورا هاما فى حياة هذا الفتى وأثرت فيها تأثيرا كبيرا كما ان الحياة بأحداثها قد أمدته بمادة لا تنفد من كوارثها وعبرها حتى صار لسانها الناطق وترجمانها المعبر

نعم الفتى بطفولة مسعدة ذات فنون والوان وتقلب فى جدة حتى جاوز العاشرة وسواء بعد ذلك ان يكون قدذهب الى مدرسة القرية ليتعلم او أن ايدى المربيين قد تعهدته على عادة أهل الزمان فهذه أمور وتفاصيل ما عنى أحد بتسجيلها ولا يتناقلها فان أحدا لم يكن يحسب حسابا لهذا الفتى بل ان أحـــدا لم يعد يهتم لهذه الاسرة بعد أن اصابها الاملاق وقضت عليها المتربة فان يكن لهذه الاسرة معجبون فقد فرقتهم أيدى الحدثان التى لا ترحم وردتهم الى مناهل أخرى يلتمسون منها العون فنسوا فى حاضرهم ماضيهم وضاعت بذلك أثار هذه الاسرة وانمحت أخبارها وتفرقت رواتها ولم يبق للتاريخ الا بقايا ضنت بها العاديات عن المحو فظلت مبتورة تعين على شطحات الخيال وترسم للمتامل اطلالا له ان يحيلها قصورا ومعابد وله أن يجعلها اكواخا وصوامع

على أن من المحقق هو أن فتانا فى سن الثانية عشرة قد شهد تحولا فى الحياة التى عهدها فاترب أبوه واملق ذووه وضاع المال واتبعه الجاه واضطرت الاسرة وقد كثرت عيالها وضاقت ارزاقها ان تنحدر عن مستوى ألفته الى مستوى لم تألفه وأن تطرق للكسب ابواباً لم تطرقها وهكذا الزمان إذا أتم لانسان النعمة وافاء عليه الغنى والجاه اخذ ينقض على حواشية يداعبها ويقلم من أطرافها ويجوز على أصولها حتى يأتى يوم فاذا الغزل قد نقض من أساسه واذا الثروة قد تبخرت واذا النعيم قد زال واذا العز قد أعقبه ذل واذا الترفع قد أتبعه السؤال ؛ انقلبت حياة الفتى وبعد أن عاش لا سائلا أبداً ولا مسئولا أضحى يرى بعينيه الدنيا تحول والمعين ينضب والخلان تتفرق والاب يمرض ولكنه يكافح فى سبيل الكفاف لاولاده الخمسة .

ذاق مرارة العيش كما ذاق حلاوته وعاش ليرى بعينيه صنوفا من المعاملات وضروبا من الحياة الخشنة ما كان يمكن أن يدرك حقيقتها وأن يقف على كنهها لو أنه اكتفى بالسماع أو القراءة عنها أما وقد دفعه التيار الجارف دفعا فيها أما وقد عاش فى اكنافها وتنفس فى احضانها فقد خطت فى سجل تجاريبه خطوطا حية لا

يمكن ان تتحول ← لقى فتانا فى الخامسة عشر حياة جديدة حياة كفاح من أجل العيش حياة كد وسعى فى سبيل عون الأسرة المتداعية والأخذ بناصر الأب المتخاذل الذى تفرق عنه الانداد وضيق الخناق عليه الدائنون حتى اضطروه الى بيع ما يملك ومالا يملك وتركوه صفر اليدين لا مأوى ولا معين »

ومهما يكن من شىء فان هذه الضربات المتلاحقات والنكبات المتتاليات والاشجان الآخذة برقاب الأشجان قد أثرت فى نفوس الفتيان وتركت فيها ندوبا عميقة وهم بعد طرية أعوادهم غضة اجسامهم رقيقة نفوسهم حساسة مشاعرهم ولا غرو أن يكون الأخ الاكبر هو صاحب النصيب الموفور من هذه المحن فهو وحده الذى أدرك الأيام الحلوة وعرف شاسع الفرق بينها وبين الايام المرة بل هو وحده الذى أصابه الاملاق فى الصميم فقد كان يجرى مع ثرب ممن على شاكلته فى المدرسة طورا وفى الحدائق طورا وفى الثروة حينا وفى الجاه حينا آخر فاذا هم يجرون فى طريقهم وهو وحده يتخلف لا لذنب جناه ولا لعيب فيه ولكنها المقادير تباعد بين الناس وتفرقهم سبلا فى الحياة — نعم كان فتانا أشد الاسرة احتمالا لاثار المتربة لانها أصابته فى الصميم

وحرمته من أن يسير فى الطريق الذى اختطه لنفسه — ترى لو ان الامور جرت فى اعنتها افلم يكن فى طريقه الى اكسفورد أو كامبردج وترى لو أن الامور سارت سيرها الطبيعى افلم يكن له شأن آخر . . . وترى وترى وما اكثرها لكنها لا تجدى شيئا ولا تغير واقعا على ان الذى يعنينا من كل هذا هو ان الفتى فى هذه السن الباكرة قد اصيب بخيبة أمل وما أشد الصدمة التى تنجم عن خيبة الأمل فانها ترهف الحس وتزيد فى حساسة الاعصاب

غير الفتى من غير شك مجرى حياته تغييرا عنيفا واضطرارا الى ان يكبح جماح آماله وأن يسلك سبيلا وعرا يواجه فيها الحياة الخشنة فى غير عدة ولا اعداد فكان لا بد له ان يلقى صنوفا من الخيبة وضروبا من الحرمان وان يكابد من المشقات والعسر ما يملأ نفسه الفتية مرارة وألما، نزل فتانا الى معمعة الحياة المدلهمة فخاض غمارها وتقلب فى حرفها المختلفة ولم يأنف فى سبيل أن يقيم أوده وأود أسرته من ان يساهم فى أى حرفة شريفة تدر عليه المال وسواء أصح ما قيل من أنه اشتغل جزارا بذبح العجول أو غير ذلك من الحرف فما يعنينا هذا فى قليل ولا كثير الا بمقدار ما يشع من ضوء على ما أصابه هذا الفتى من تجاريب الحياة

المتشعبة فى هذه السن الباكرة

امتلأت جعبة الفتى بالتجاريب الحافلة منذ نعومة أظفاره وفاضت نفسه بالمعرفة للحياة فى شتى مظاهرها ووقعت عينه على الجمال تكسوبه الطبيعة مرابع الغزلان ومروج الذهب وتفتحت أذنه لموسيقى الطير فى وكناتها ولحلاوة تسلسل الامواج وخرير النهر وامتلأ صدره بقليل أو كثير من المعارف وعاها أيام الدرس والتحصيل فحفظ كثيرا من أقاصيص الاغريق واللاتين ووعى الكتابة اللاتينية واليونانية وكان له فيهما حظ اعانة على القراءة بها وعلى البحث والاسترسال وراء النصوص القديمة التى كتبت فى هاتين اللغتين من تاريخ أو قصص — أطبق الفتى صدره وهو فى بكور الحياة وفجرها الرطيب على مشاعر وأحاسيس ومعارف وتجاريب لم تكن لتتوفر لغيره من أترابه فى هذه السن مهما جد فى تحصيلها وكد سعيا وراء جمعها ولم يبق له من ضروب الحياة المتشعبة الا ضربا واحدا لم يتذوقه ولم يألفه — أترى ظل محروما من هذا اللون الجديد أمدا طويلا ؟ كلا فما كان لمثله وقد انضجته التجارب وسوته الحوادث وسارعت به الى الفتوة قبل أوانه أن يؤجل هذه التجربة الزاخرة تجربة الحب تجربة الحياة والزاوج —

نعم كانت حياة فتانا فى عهدها الاخير متقطعة الاسباب حالكة الجلباب لا توحى بأمل ولا تحض على زواج ولا استقرار ولكن منذ متى كانت الحياة الزوجية نتيجة الثراء والميسرة ومنذ متى خضع الحب للاستقرار والهدوء ومنذ متى كان للعشق عقل موزون وشريعة مرسومة — الا أنها الحياة تدفع إلى أغمارها من يجد ومن لا يجد والا أنه الحب تمسك فى شراكه من يستقر ومن لا يستقر — ومتى كمل للمرء شعور حساس وفتوة ناضجة ورجولة باكرة فكل سلاح بعد ذلك فى دنيا الحب مغلول وكل منطق فى لغة المحبين غير مقبول — ان الحياة تزخر بالزيجات التعسة من حيث المادة ولكنها حية من حيث الحب ناضرة من حيث الأمل — الا ترى إلى المحبين يطوون الحشا على المسغبة ويعيشون على الغذاء الروحى تتناجاه نفوسهم وتتبادله أرواحهم ولولا هذا الأمل الحبيب ولولا هذا الرضى ماعاشت هذه الزيجات التى تجاوز الآلاف عدا ولا انجبت بنات ولا بنين

فى عنفوان من رجولة باكرة أقبل فتانا غير هياب ولا وجل على الزواج وهو يعلم ماوراءه من متاعب له ولأسرته وهو يعلم أنه يزيد به ضغثا على إباله ولكن ما الحيلة والحب هو الحب

والحياة هى الحياة ماأوقف جريانها تفكير ولا منع سريانها مصاعب . . . . تزوج وهو فى سن الثامنة عشرة من إمرأة تفوقه سنا بثمان سنوات ولها ولد من غيره ومن بلدة متاخمة لمدينته فهل رضى بها مع مارأى من حالها أم هو الحب أوقد نار فتوته فغشى على كل منطق وكل بصيرة فأتم الزواج ليهدأ ثائرة نفسه ويهدأ ثائرة قلبه — مهما يكن من أمر فقد تزوج الفتى بحبيبة الفؤاد وأقبل بها يسعى الى دار أبيه وسواء أثار الأب أم هدأ فقد رضى بالأمر الواقع حتى إذا ناء بعبء الحياة المتثاقل طلق العمل وانزوى فى عقر داره كسيرا حزينا تحف به أشباح الماضى الباسم فتثقل كاهله وسواء علينا انتهى الأمر بالأب إلى السجن لعدم استطاعته دفع غرم مالى أم لم ينته فان مايعنينا من هذا القدر من الحديث هو أن ندرك أن عبء هذه الأسرة الكبيرة المتفرعة قد وقع على كاهل فتانا ولما يزل غض الاهاب فكيف صارع الحياة من أجلهم وكيف استطاع أن يكفل لهم القوت بل كيف استطاع أن يعيد من مجدهم ماانهدم ومن ماضيهم ماانداثر وان يقيم على اطلال ذكراهم منارة عالية تشع نورا يهدى الحائرين ويسر العابسين ويذهب الحزن عن المحزونين ويرد

الصواب الى المسرفين فى مالهم وعقولهم — كيف استطاع هذا الفتى الممرور عيشه المتقطعة وسائله المثقل كاهله أن ينفض عنه كل هذه الأشياء وان ينفخ فى مزمار الحياة مزامير عاشت مع الزمن تسر وتحزن وترضى وتغضب وترفع وتذل مزامير لها من قوة الوقع وجمال الترتيل ماسواها بآيات التنزيل

ترى من هو هذا الفتى الذى تحالفت الطبيعة والأيام على اعداده وهيأ له الوجود مراتع للصبى مليئة بالجمال والالوان وحيته الايام صفاء وبهجة ثم قلبت له ظهر المجن فاذاقته مرارة وبأساً وقلبت على عينيه من ضروب الحياة عاليها وسافلها وطيبها وغثها ما ملأ صدره بالحوادث والعبر . أكانت الأقدار تغص مسرح حياته بهذه المشاهد المتعددة لانها تريد أن تنطقه بالحكمة وأن تشعل بين جنباته من نيران وحيها ما يورى به زنده فتندفع هذه الصور والمشاهد من صندوقها المظلم الى ضوء الحياة المنير

ذلك كان التقدير ولكن احدا لم يدركه وذلك كان صنع الله ولكن أحدا لم يتنبأ به أما الفتى فكان وليم شكسبير الابن الثالث لجون شكسبير تاجر الجلود والقفازات فى مدينة استرانفورد على نهر الآفون — ولد وليم فى سترانفورد وعاش فيها حتى أكمل

العشرين من عمره فانطبعت صورها الخلابه فى نفسه الحساسة ذلك لانه ابدا كان دائب التنقل بين ربوعها ومعانيها وبساتينها وضفافها وغاباتها لم يمنعه الكد فى سبيل العيش من أن ينهز أوقات فراغه ليعود الى مراتع صباه ومسارب فتوته يجرى بينها كما كان يجرى مطاردا الغزلان حينا والطيور حينا آخر

ولم يمنعه هذا الكد المتواصل من أجل العيش من أن يغذى نفسه الشاعرة بالجلوس الى ضفاف الآفون متأملا سريان مائه مصغيا الى خرير أمواجه وكان وليم يجد الراحة فى تلكم اللحظات التى ينتزعها من حياته الصاخبة انتزاعا فيجلس فيها الى الطبيعة يسكن اليها تأثر قلبه ويملأ من جمالها وجلالها نفسه نشوة تعينه على تحمل أثقال الحياة

تلك كانت أيام وليم الأولى فى سترانفورد ما عرفه انسان ولا أحس به مخلوق عاش مجهلا لم تبد عليه آية سمة من سمات النبوغ ولا بدرت عليه علامة من علامات العبقرية — قضى صباه وفتوته نسيا منسيا يئن باعباء الحياة كما يئن الملايين ، يشرد حينا ويستقر حينا آخر طلبا للرزق وسعيا وراء المادة التى تحفظ له أوده وأود عياله فقد زادته الأيام عبئا على اعبائه فرزق من زوجته آن هافوى

بثلاثة أبناء انضموا إلى الأسرة الوافرة العدد — وأخيراً لما ضاقت الأرض بوليم فكر فى النزوح عن استرانفورد لعله يجد فى غيرها رزقا موفوراً يستطيع معه أن يوفر لهؤلاء الجياع أقواتهم . . . وعجلت الحوادث الفكر وأخرجته إلى حيز العمل فقد وقع وليم فى نزاع مع أحد الملاك من السادة حول غزال طارده فى أرضه اشتكاه من أجله فعجل وليم رحيله عن أرض الوطن طلباً للرزق وسعياً وراء المجد ونأياً عن المشاكل وإيثاراً للسلامة — خرج من استرانفورد لا مال معه ولا بنون إلا عقله وساعده قاصداً لندن ، وفى لندن تهيأت له من المصادفات العجيبة والمقادير الغريبة ما ملأ بقصة هذا الفتى المغمور صفحات التاريخ وما جعله فى مرتبة الخالدين من رجالات العلم والأدب . . . فكيف أمكن لهذا الفتى العاثر الجد أن يخط طريقه فى لندن وأن يعيش . . . ؟

عصر خالد

إذا كانت المقادير قد اختارت لوليم مكان ظهوره فوشت بالجمال والفتنة تلك البقعة المباركة التى حظيت بمنبته فهل عناها أمر اختيار الزمان الذى يظهر فيه وهل جلت الزمان هو الآخر وشحنته بالأعاجيب وأمدته بشئون وشجون لاعهد للناس بها ... هل جعلت من هذا الزمان الذى وقعت عليه يد عنايتها خزانة للفكر الخصيب ومسرحاً للفن العجيب . . . إن يكن هذا فعين المقادير الساهرة لم تجمعه عبثا ولم تؤلفه فى غير تدبر ولا قصد ... وإنما مهدت به لظهور بطل عرفته هى ولما يعرفه الناس واختارته هى ولما يحط الناس بأمره خبراً — اختارته من بين صفوف البشر المتراصة لا تميزه سمة ولا ترتفع به علامة ليكون الإعجاز معه خارقا والعبقرية كاملة — ولتكون ضربة المقادير فى مكانها فتوقظ الهاجعين وتحيي أمل البائسين رجل من العامة لا هو فى العير ولا فى النفير تقع عليه عين المقادير ليبلغ رسالة ما عهد الناس له فيها سبقا ولا أدرك واحد أن له بها صلة — رجل يقع عليه الاختيار فما أن يوحى إليه بالسر الرهيب حتى تنقطع صلته

بماضيه وإذا سنوات الخمول التى مرت به كأنما هى سنوات اختمار وتأهب وإعداد لتحمل الرسالة القدسية التى أوحت اليه بها الأقدار أجل ما كادت اللحظات التى اختارتها الأقدار للوحى تمر حتى هب كالعملاق يقطع الأرض قطعا مرسلا القول إرسالا فى غير تعمل ولا مداورة حتى ملأ الأسماع وبهر العقول بحسن منطقه وبراعة استهلاله وجمال تراكيبه وبديع تواليفه — ترى أكانت معجزة شكسبير من جنس ما اعتاده قومه وألفوه من ضروب القول فلما أن جاءت آيته لقفت ما صنعوا وتركتهم حيارى لايدرون ما يصنعون لقد اعتدنا أن نرى الملهم يحاج قومه بلسانهم ويصارعهم فى ميدانهم لتكون حجته عليهم أقوى ومعجزته فى نفوسهم أوقع فإذا كانت عدة قومه البلاغة والفصاحة آتهم بالمعجز من القول وتحداهم أن يأتوا بمثله فإن عجزوا فقد حقت عليهم كلمته وباءوا بخسران مبين وإن كانت عدة قومه السحر أتاهم بالمخرس من فنونه حتى إذا عجزوا عن مجاراته خروا لعظمته عاجزين — فأى كانت آية قوم شكسبير وأى كان زمانه ...؟

أدرك شكسبير نور الحياة على عهد الملكة اليصابات فى النصف الأخير من القرن السادس عشر — واذا قلنا عهد

اليصابات فى انجلترا فقد ذكرنا عهداً من العهود الذهبية التى مرت ببلاد الإنجليز فقد جاء عهد اليصابات مؤذناً بانتهاء تلك المعارك الدموية التى غمرت داخلية البلاد كأثر لتنافس بيتى الملك فيها وكأثر الحروب الطويلة المعروفة بحرب الوردتين .

وكان الناس على هذا العهد يشعرون بانفساح الآمال واتساع الآفاق فكانت تشملهم غبطة فياضة وهدوء نفسانى إذ تفتحت أمام أعينهم عوالم جديدة كأثر للفتوح والاستكشافات وهدأت ثائرتهم واطمأنت نفوسهم إلى قيام حكومة مركزية قوية جمعت زمام السلطة فى يدها وقضت على حرب المشاحنات بين الأسر وتميز العصر الى كل هذا بطابع من التيسير والتسامح الدينى كأثر لاستقلال الكنيسة الانجليزية عن أختها فى روما مما مهد لتقوية الشعور الوطنى الذى انتهى بالانتصار الحاسم على الاسبان فى حرب الارمادة وقد هيأت الحياة الجديدة الفرصة للقضاء على كثير من العادات والتقاليد القديمة التى كانت تحول بين كثير من الناس وبين السمو إلى درجات الرفعة فمهد هـذا الإلغاء لكثير من القراصنة الذين أدوا خدمات فى البحار أن يصلوا الى مراتب اللوردية وساعد افتتاح البحار ورواج التجارة فى الداخل والخارج

العالم كله يستعر فيه أتون من الثورة وانقلاب الاوضاع ولكن الناس مع ذلك كانوا كأنما قد شملتهم موجة من السحر فجعلتهم يسيرون على الجمد والارض تميد من تحت أقدامهم .

ولم تكن الملكة اليصابات أقل اتصالا بشعبها فقد كانت معبودته والموحية اليه والمشجعة لاعماله وكان قصرها مركزاً لحركة اجتماعية غلابة لها سحرها وألوانها . . . وهى فى كل حين تغدق على من ينال رضاها من الإقطاعات والثروة ما يرتفع به إلى مقام السادة فكان الكل يلتف حولها طامعاً فى نداها مؤملا فى عطائها وكانت فى قصورها الخمس تشرف على التيمس فكأنما تشرف على عرق الحياة النابض فى مملكتها فقد كان التيمس أبداً فى حركة دائبة مراكب صاعدة ومراكب منحدرة وسفن ذاهبة وسفن آيبة تلك تحمل الرجال إلى أمريكا وبلدان الدنيا الجديدة وتيك تعود من هناك محملة بالذخائر والنفائس ومحملة بالطرف والاخبار والنوادر والحكايات عن العالم المجهول وعن الدنيا الباهرة فكانت لندن وكانت شطئان التيمس كأنها خلية تعج ليل نهار بالصادرين والواردين وتعج ليل نهار بالاحاديث عن الدنيا التى تفتحت أبوابها بعصا سحرية فتدفقت من ورائها الثروات

وانهالت الكنوز والنفائس وأضحت لندن فى هذا العصر الذهبى مهبطاً لمتاجر الشرق والغرب ترد اليها من أفريقية ومن بلاد الشرق الأوسط ومن لبنان ومن الهند ومن الشرق الأقصى وأضحت بين يوم وليلة مركز العالم القديم والجديد ومحط رحاله — وتسامع الناس بأخبار النهر وأقاصيصه وتناقلت الأفواه حكاياته ومزاميره وتفتحت لاصواته الآذان الشاعرة فسجلت منها ما وعته الذاكرة ودارت كؤوسه وأنغامه على الآذان فشرب الناس منها حتى ثملوا فسقوا غيرهم وهكذا أضحى للبحارة حديث وأضحى لهم قصص وأضحت لهم سير دبجتها أقلام خالدة فخلدت مع الزمن .

لقد خرجت الجزائر البريطانية من عزلتها فى هذا العصر البهيج ووسعت آفاقها وبنى لها أبناؤها المجاهدون فى البحار أمبراطورية عظيمة بنوها بالقرصنة والتجارة — وكما دان الانجليز لهذا العصر بأمبراطوريتهم فقد دانوا له باللغة والادب إذ لولا ما ساهم به الأمراء ورجال القصر من عطف ورعاية للغة والادب ما ارتفع لهما ذكر ولا حفل بهما إنسان ، وقصة اللغة والادب قصة عجيبة فإن آثار النهضة التى شملت إيطاليا وحفزت أمراءها وسراتها على رعاية الفنون والآداب قد انتقلت عدواها الى كافة

اوربا والى انجلترا خاصة فجرى سراتها وأمراؤها على الخطوط التى رسمها لهم قرناؤهم فى ايطاليا ـ وساعدهم الثراء الذى تفتحت أبوابه من كل جانب على الاغداق على الأدباء والشعراء وأهل الفن من الموسيقيين والممثلين ـ وكان العادة التى يسير عليها أهل الزمان هى أن تحفل دور الامراء وأصحاب الثراء برجال الفنون والآداب ويتنافس هؤلاء فى الفوز برضى سيدهم وراعيهم فيهدون اليه نفثات أقلامهم ومنتجات عقولهم وفيوضات خيالهم وكان السيد أوالراعى يشجع الجميع ويهدى لمن يفوز برضاه المال الذى يعينه على مواصلة الانتاج ـ وقد كان لهذه الحركة أثر بارز فى تشجيع الفنون والآداب والسمو بها الى مراتب من القوة والجمال لا عهد للناس بها ـ ورثت انجلترا هذا التراث الصالح من اوربا فتعهدته ملكتها بالرعاية بقدر وشجعت الآداب والفنون بما كانت تقيمه فى قصورها من حفلات وبما كانت تعقده بين الادباء والمؤلفين من مسابقات يتنافسون فيها على الفوز برضى الملكة ولاحراز قصب السبق فى الروايات التى تمثل فى الحفلات السنوية العامة ـ وكان الامراء والسراة من ناحية أخرى ينافسون قصور الملك فى ابهتها فكانوا يجمعون فى دورهم وقصورهم حاشيات

مختلفة من رجال الادب والفن ويغدقون عليهم المال ليقدموا لهم عصارة أذهانهم فى صورة قصص وروايات تمثيلية يمثلونها فى مسارحهم الخاصة ويسمعونها لخاصتهم فى سهراتهم ومنتدياتهم

اخصب الادب واخصب الفن وكثر عشاقه ورواده وكثر المنتمون الى حظيرته فكان لابد لهم من أمكنة يأوون اليها يعدون فيها رواياتهم ويستعدون فيها للعمل وللتمثيل فكان ان أنشئت المسارح فى لندن فى النصف الثانى من حكم اليزابث وعاشت المسارح فى كنف الملكة على انها دور اعداد لما سيمثل فى البلاط وبذلك استطاعت أن تحيا على الرغم من تضييق اصحاب المذهب البيوريتانى Puritans الذين كانوا يضيقون ذرعا بها واضحت الروايات التى تعد للبلاط تعرض على العامة فى هذه المسارح على انها تجاريب واعداد للاخراج النهائى وكان ذلك ميسورا إذ ان المسارح كانت تفتح أبوابها العامة فى ضوء النهار وكان التمثيل يجرى فى الضوء والهواء بينما كانت حفلات القصور وحفلات البلاط لا تبدأ الا فى الليل . وبذلك استطاع الممثلون أن يعرضوا بضاعتهم فى قصر الملكة دون أن تتحمل الملكة عبء تمويلهم فقد كانت الحفلات النهارية تقوم بما يلزمهم من مصروفات وتسد خاجاتهم من المال

كانت لندن على هذا العهد تضج أروقتها وقصورها بالفن والأدب وكانت الروايات التمثيلية تستهوى أفئدة العامة وتخلب لبهم وكانت عناية الناس بالطرب والموسيقى والمسرح بالغة أشدها حتى أن الأقبية والحانات وكل مكان فى لندن كان غاصاً بالموسيقيين والممثلين يتبعون المارة كظلهم ولا يتركون زائراً أو طارقاً إلا استوقفوه ودقوا له موسيقاهم ليهيئوا له رقصة أو رقصات — وفى إمكاننا أن نقول أن هذا العصر قد شهد تطوراً فى الأدب وتطوراً فى الموسيقى وتطوراً فى الفن بل إن هذا التطور قد قفز بالفن والأدب والموسيقى قفزات طويلة قطع بها أشواطاً نحو المجد ونحو الغاية ونستطيع القول أن هذا الضرب من الهواية لم يكن قاصراً على السادة ولا على الأمراء بل امتد ظله إلى العامة وإلى كل فرد فى الأمة حتى أصبحت الموسيقى وأصبح المسرح هوية كل إنسان وموضع عناية كل فرد فلا عجب بعد ذلك أن تضفى الروح القومية على هذه الفنون مظاهر شعبية جعلتها قريبة إلى كل قلب حبيبة إلى كل فرد فإذا صح أن الأدب قد أشرق ضوءه وأن الموسيقى قد ارتفع صداها ورقت ألحانها كأثر للنهضة التى سادت إيطاليا وغزت أوربا وانجلترا بعد ذلك فكيف أشرق

المسرح وكيف ارتفع ظله حتى أضحى فى عصر اليزابيث مؤسسة اجتماعية تقوم بخدمات عامة تعبر عن رأى مجتمعات لندن وتصدر عما يدور فيها من أحاديث وأخبار بل كيف استطاع المسرح أن يجعل من نفسه قطب الرحى فى الحيـــاة العامة يوجهها وينقدها ويفعل ما تفعله الصحف فى هذه الأيام بل وأكثر فقد زاد على كونه منبراً حراً للأفكار أن غذى الناس بالقصص والحكايات المثيرة والروايات العاطفية بحيث أضحى النـاس فى ذلك الحين يجدون فيـه كل تسلية مما نجد نحن اليوم فى المجلات والروايات البوليسية والغرامية التى تملأ الأسواق.

نشأت التمثيلية أول ما نشأت فى انجلترا فى أحضان الكنيسة فى مطالع القرن الثالث عشر وكان الغرض منهـا عرض قصص الإنجيل وشخوصه على العامة في أسلوب يستهويهم ويرسخ فى أذهانهم فكانت تمثل لهم شخصيات القديسين وأعمالهم فى صورة جذابة وكان القسس فى الكنائس يقومون بهذا العرض كما كانوا يعدون التمثيلية معتمدين على نصوص الإنجيل وقصص القديسين وكان العرض يمتـد فى بعض الأحيان أسبوعا وأسبوعين وكان هذا النوع من التمثيلية يسمى Miracle Plays (روايات المعجزات)

وتطور القصص وامتد وبعد أن كان قاصراً على نصوص الإنجيل وقصص القديسين أصبح يعالج مسائل أخلاقية الغرض منها تثقيف العامة وتزويدهم بالأخلاق الفاضلة فكانوا يجسمون الفضيلة ويجعلون منها شخصاً يتكلم فسميت هذه الروايات (بالروايات الأخلاقية) Moral Plays وكان شخوصها الجمال والقوة والعلم والصداقة والمحبة ، وتطورت هذه التمثيليات رويداً رويداً إرضاء لحاجة المستمعين وجذباً لاهتمامهم فأدخل على الروايات بعض مناظر مسلية مما يثير الضحك وتسلى النظارة — كما أدخل على موضوعاتها شيئاً من التاريخ وشخصياته وبذلك تطورت القصة التمثيلية من أمور دينية بحتة إلى شئون تاريخية وفكاهية وأصبح هذا النوع من الروايات محبوبا لدى الجماهير يتسابقون لرؤيته وما أن أهل القرن السادس عشر حتى كانت هذه الروايات المختلفة قد تطورت وأصبحت تسمى بالروايات التاريخية — ومن هذين الضربين الفكاهى والتاريخى نشأت المسرحية الحديثة فقد تطورت الفكاهة وانتهت إلى الملهاة Comedy كما تطورت قصة التاريخ وانتهت إلى المأساة Tragedy

ولا شك ان عوامل هذا التطور كامنة فى الشعب الانجليزى

نفسه فهو الذى شجع على هذا النجاح وهو الذى عجل بهذا النمو المطرد ـ ولا تتسع صفحات هذا الكتيب لاسهاب فى كيف تطورت المسرحية وخرجت من الكنيسة الى أيدى الشعب فهذا أمر يحتاج الى بحث طويل لايعنينا منه فى هذا المقام إلا أن نوضح أن عصر اليزابث أو العصر الذى سبق ظهور شكسبير كان عصر اهتمام بالفنون والآداب وكان عصر عنايته بالمسرح ليست وليدة ظهور شكسبير ولكنها ترجع إلى أجيال طويلة قبله ـ وما دمنا قد رسمنا صورة لهذا العصر وما يعج فى جنباته من أدب وموسيقى وفن ومادمنا قد صورنا الحياة فيه وما يندفع فى تيارها الجارف من نهيرات وروافد كثيرة تأتى من هنا وهناك فتملأ النهر الجارى بالحياة وتجدد فيه القوة وتدفع اليه بمقومات الفتوة ـ مادمنا قد مسسنا هذه الناحية فلا ريب أن هذا الفيضان الفكرى والاجتماعى وهذه الثورة التى قامت فقلبت كل وضع وجددت كل أمر خليقة ان تسجل وان تمجد ولكن بأى لسان وبأية وسيلة ـ كان ضروريا أن تجد هذه الافكار الجياشة وهذه القصص المتناثرة وهاتيك الصور والطرف التى تأتى وتذهب من يدونها ومن يقرع بها آذان العامة ويهز بها مشاعر الخاصة ويبقيها على الدهر خالدة ، باللسان الذى يفهمه

الشعب وبالوسيلة التى تستهويهم وتملك عليهم قلوبهم ـ أما اللسان فهو اللغة الانجليزية وأما الوسيلة فهى المسرح فقد كان المسرح فى هذه الايام سلوى الخاصة والعامة وموضع مباهاتهم ورضاهم ـ ولذلك كان طبيعيا ان تستجيب الاقدار لهذه الحاجات الملحة فتبعث رسالتها الى هذا الجيل على لسان شاعر وكاتب مسرحى ولتكون معجزته من جنس ما يفهمه قومه ولتكون كلمته فيهم هى العليا ـ وقد كان ان ظهر فجأة فى لندن يافع فى سن الثامنة والعشرين لا يعرفه احد ولا عهد له بالأدب ولا سبق له فى مداولة الشعر ولا هو من رجال المسرح أو رجال القصور بل يافع ريفى قدم الى لندن كما يقدم اليها الآلاف كل حين طلبا للعمل وسعيا وراء الثروة والجاه لامال له ولا نسب فاندمج فى أسرة المسرح وما عتم ان اصبح كل شىء فيها وما لبث أن ارتفع صوته وعلا نجمه وفاضت حكمته ووري ذكاؤه ولمعت عبقريته فانطفأ كل نور إلا نوره وخبت كل شعلة الا شعلته واضحى بين يوم وليلة بطلا فذا وشاعرا ضخما ومسرحيا منتجا تتقطع دون مباراته الاعناق ذلك هو وليم شكسبير الذى تركناه فى قريته استرانفورد على نهر الآفون يعالج قساوة الايام ووحشة الزمان ويعد نفسه للرحيل الى لندن لعل

الله يفتح له بابا يستطيع منه ان يدخل على أهله سرورا انقضى عهده ويوفر لهم طعاما تعبوا فى الحصول عليه

أقبل وليم على لندن وفى النفس ما فيها من مرارة الأيام وفى الفؤاد ما فيه من لوعة الحرمان لفراق مرابع الصبا ومواطن الطفولة . . . . أقبل على لندن فى زهرة الشباب وعنفوان الفتوة فتى مجرباً لا غراً ولا حدثا أقبل يحدوه الأمل ويحفزه الرجاء مؤمنا بنفسه واثقا فى جهاده ليبلو حياة جديدة لعل فيها عودة النعيم ولعل فيها الجاه والثروة — دخل لندن لا متطلعا ولا ساخراً ولا عابثا بل مكافحا يريد العمل والكسب ، دخلها فى سن العشرين وأمضى فى ربوعها ثمانى سنوات يعمل ويكد ليصل إلى شىء ولكن فيم أمضى هذه السنوات ؟ وفى أى عمل قضاها ؟ هذا ما لم يصل إلى علم أحد لأن نور الشهرة لم يكن بعد قد أشرق عليه ، ولأن فجر العبقرية لم يكن بعد انبثق ضياؤه . . . . وسواء علينا أأمضى هذا الشاب هذه السنوات فى أعمال صغيرة يكتسب منها القوت أو أمضاها فى الدراسة والتأمل فيما حوله من دنيا جديدة متفرعة مناحى النشاط ينهل منها لنفسه معرفة ويعى منها لحسه تجاريب سواء علينا أأمسك الفتى بأزمة الخيول للسادة عند

دخولهم إلى المسارح ، أو لعب أدوار ثانوية فى بعض الروايات ؛ أو اشتغل أجيراً لأصحاب المسارح ، يقضى لهم حاجاتهم فكل هاتيك تفاصيل لا تخرج عن الحدس والتخمين ، ولا ترتفع قط إلى مرتبة اليقين ، فما عرف أحد وليم فى هذه السنين ، ولا كان وليم نفسه ممن يكتبون يوميات أو مذكرات لا ، ولم تكن له رسائل البتة ، وقد قامت جماعات وجماعات بالبحث والاستقصاء والدراسة لعلها تجد إشارة أو عبارة فى كتيب يشير إلى تلك الأيام فما اهتدت إلى شىء يحسن السكوت عليه ، على أن هذا الظلام الدامس ما لبث أن انبلج عن صبح اليقين ، فإن وليم المغمور فى مجتمعات لندن الحافلة ، وليم الذى قضى ثمان سنوات من زهرة العمر لم يسمع به مخلوق ، قد طفا فجأة ، وارتفع وظل يرتفع ، حتى سما على كل إسم قبله ، وأصبح اسمه يذكر مقروناً بالاحترام والتبجيل ، أجل بعد هذه السنوات الخاوية ، طفر اسم وليم شكسبير وظهر وتحدث عنه الكتاب — صحيح أننا لا نستطيع أن ندلى بشىء عما حدث لوليم أو عما صادفه فى خطواته الأولى ككاتب مسرحى ، ولكن من الحق علينا لشكسبير أن نوفيه حقه ، فهو لم يظهر على المسرح لأن الأرض لم يكن فيها مبارز غيره ، ولا علا نجمه

وبعد صيته، لأن مسارح لندن قد عقمت، فلم تجد كاتباً ولا شاعراً يغذيها بكتاباته ورواياته، بل الحق أن شكسبير ظهر ولندن تموج بالكتاب والمولفين، وتذخر بالشعراء والقصاص، وكان فيهم النوابغ وأصحاب الرأى من خريجى الجامعات University ولكنه مع ذلك، بزهم واندفع إلى طريق المجد بخطى ثابتة، وملأ الأرض نوراً جلا دنيا الفن تجلية عجيبة، بهرت الناس، وغشت على أبصار منافسيه وتركتهم يتخبطون، حيارى بين البقاء فى هذا المضمار، أو مجانبته إلى غيره.

الفصل الثانى

ضحى العبقرية

إن القدر الذى هيأ لشكسبير منبتاً كأحسن مايكون تكويناً للعبقرية ، وإنماء للإحساس بالجمال ، وتفتيقاً للذهن على شتى التجاريب، كان لاشك موجهه إلى حيث تتوفر لهذه العبقرية عوامل الاكتمال ، ولهذا الإحساس عوامل النضوج ، ولهذه التجاريب المزيد والاتساع ، حتى يتيسر لها جميعاً سبل الإنتاج المثمر فى عاصمة المملكة الانجليزية .

ولا نستطيع أن نعرف على أى وجه من الدقة ، متى وكيف هبط شكسبير لندن ، وما يعنينا أن نكشف عن السنوات التى سبقت ائتلاق مجد الشاعر ، واستوائه على عرش الأدب والشعر ، وما يهمنا أن نعرف كيف قضى شكسبير تلك السنين ، وفى أى مهنة

عمل، وإنما الذى يعنينا حقاً ، هو أن شكسبير أصاب فيها استعداداً كاملا موفوراً للدور الهام الذى قدر له أن يلعبه على مسرح الأدب والحياة فيما تلا هذه السنين ، وأنه لاشك اتصل بالأدب المسرحى ودنيا المسرح ، اتصالا هيأ له هذا الاستعداد ، وإلا فكيف نفسر إشراق المجد، فى غير حساب من الوقت ، أو طول محاولة وتجريب . . .

× على أن حياة الشاعر فى لندن ، لم تكن لتخلو فى التأثر بعوامل هى التى هيأت للعبقرية أسباب الظهور ، وتعهدتها بالنماء، ولعل أول هذه العوامل جميعاً هى المدينة نفسها لندن ، وما أوحته إلى نفس الشاعر ، من صور وأحاسيس ، كما كان للنهضة المسرحية التى حمل لواءها الكتاب من قبل شكسبير ، وقبل أن يبزغ نجمه أثرها الفعال فى تكوين فن الشاعر ، أضف إلى هذين ما وفق إليه الشاعر من صداقة ذوى الجاه والنفوذ ، من طبقة النبلاء ، مما مهد له سبل النجاح فى اطمئنان ودعة ، ورد عنه كيد الكائدين ، فانطلق فنه حراً ، فى غير قلق أو اضطراب .

هذه العوامل الثلاثة مجتمعة ، تآلفت على أن تهيء للعبقرية الكامنة سبل الظهور ، على أن التفاعل بينها وبين الشاعر كان تاماً

باعثا على الوفرة والخصب ، معينا على الإنتاج الناجح الموفق

وإنا لنرجو أن نستقصى فيما يلى أثر هـذه العوامل فى نفس الشاعر وفى فنه .

× لندن

لم تكن لندن إلا كما كان غيرها من بلاد أوروبا ، أو بلاد العالم فى العصور الوسطى ، مدينة نشأت من قرية لم يختطها نظام ، ولم يرسمها تصميم مهندس ، يخيل إليك أنها كغيرها من كائنات الطبيعة شىء استقر ونما ، فى غير اتجاه مدبر ، ولا خطة مرسومة ، كأغصان الشجرة تلتف وتتدلى فى غير قصد أو غاية ، كذلك كانت المدينة بيوتاً تتلاصق وتتراكم فى بعض الأحياء حتى تغص بها وتختنق ، وتتناثر وتتباعد فى أحياء أخرى ، حتى لا يكاد يحس بعضها وجود بعض ، والنهر « التيميز » يجرى لمستقره قبيحاً فى بعض نواحيه ، متأثراً بما يحيط بشطيه من صنوف الأبنية والناس ، جميلا إذا ما انطلق من آسار الناس ، وضرب فى أحضان الطبيعة الجميلة خلت من كل شىء إلا قصور السادة والنبلاء ، وهم أبداً وفى كل مكان يعتزلون الناس ، ويتخذون لأنفسهم القصور فى المكان الضاحى

الجميل، بعيداً عن ضجة الناس وعن صخبهم، وفراراً من أمراضهم وأقذارهم كأنما هم سكان عالم آخر لا يمت إلى سكان هذه الأرض بسبب أو تربطه بهم وشائج قربى

وإن هذا القبح الذى كانت تراه العين فى لندن، حيث تعيش الكثرة من الشعب فى أحيائها الغاصة المكتظة، كان له أثره من أمراض شائعة، وحرائق مدمرة، يذهب وقوداً لها الألوف من الناس والغالى من المتاع، وطاعون يصيب القوم من حين إلى حين، حتى ليعجزهم عن جمل موتاهم وموارتهم التراب، فإذا خلصت المدينة من هذه الحرائق أو تلك الأمراض. بدت كالناقة من مرض طويل، فى وجهها شحوب، وفى أعضائه خور، فإذا طال بها الأمد وحالفتها السلامة، عادت إلى ما كانت عليه، من ازدحام وعمران، وضرب أهلوها فى مناكب الأرض من جديد، يبتغون العيش ويجلبون الأرزاق.

تلك دنيا لندن فى القرون الوسطى، ومبدأ عصر النهضة، وهى دنيا الناس فى كل مدينة أخرى فى أى ناحية من نواحى العالم، ما أكثر ما تصيبهم الكوارث، لا يعرفون لها سببا إلا ما تتناقله عقولهم الساذجة من أسباب سخرية هى وليدة الأوهام، ولا يستطيعون

لها دفعا إلا بما ألفوه من طب بدائى يذهب فى تشخيص الأمراض مذهبا سخيفا ، ويتخذ لها من أسباب العلاج ما هو أدهى وما كان فيه المزيد من الداء والاستفحال فى الشر .

على أن ضحايا المرض والحريق لم يكونوا إلا أولئك الذين حرموا أسباب الوقاية الطبيعية ، من غذاء جيد ، ومسكن نظيف ، وشراب خلص من الأقذار ، من الفقراء وأصحاب الحرف من عامة الشعب .

لم تكن لندن إلا شيئا من هذا ، شوارع تضيق وتلتوى ، وبيوتا ملأتها الأقذار ، وناسا كثيرون يغدون ويروحون وهبتهم الطبيعة أجساما صحيحة ، وإن كان الداء يتربص لهم فى كل مكان ، وفى كل لقمة ، والموت من وراء ذلك يستقضى حسابه ، ويضرب الضربة الدامية يخر لها الألوف صرعى .

على أن هذه الأمراض القتالة والخطر الكامن ، لم يكونا ليحولا بين الناس والتمتع بالحياة فى نهم ونشوة ، وما كان أحراهم بذلك والعصر كله ملهم ، والعالم يتكشف عن دنيا جديدة ، وعوالم جديدة ، وأجناس جديدة ، وفرص جديدة ، ولقد كان العصر عصر اليزابث ، فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وهذه

انجلترا ، تستقر بعد أن مزقت أوصالها حروب أهلية موهنة ، ويطمئن الناس فيها إلى ملك ثابت الأركان ، موطد البنيان ، وها هم يدلون دلوهم ، ويأخذون بنصيبهم فى تيارات الحياة الجديدة ، تقودهم إلى المجد ملكة جاءت على طراز فريد بين الملكات فى عصر كان فريداً بين الأعصر .

كانت لندن القلب النابض بألوان النشاط التى حفل بها هذا العصر ، والبؤرة التى تركزت فيها كافة الأحاسيس الجديدة ؛ فهى العاصمة وهى مقر السلطان ، ومن مينائها الطبيعى على نهر التيمز ، تروح وتغدو السفائن ، وقصور اليزابث كلها تشرف على النهر من أماكن متعددة ، وهى تعبر النهر رائحة غادية ، فى مواكب يحفها الجلال ، ومراكب تزرى بمراكب الأولين وتوحى بما أوحت به إلى شكسبير حين وصف مركب كليوباطرة ملكة مصر فى العهد القديم ، وهى تبارك السفن فى غدوها ورواحها ، وتنعم على قوادها وبحارتها بألقاب الشرف ، وإلى خزائنها يتسرب جزء هائل مما حملته السفن من أسلاب الذهب والفضة فتفيض بها خزائن الدولة ، وتمتلىء بها عيون الناس ، وينفتح إدراكهم على عجائب الشرق وتحفه وعطوره ، فيرون عجبا ويسمعون ما هو أعجب من

القصص الذى يلقيه عليهم البحارة عن أراض بعيدة وبلاد قصية فى أطراف الارض .

فلا عجب إن كان أهل لندن أول من استثير فى نفوسهم روح التقدير للحياة والحرص عليها والإفادة منها فى كل دقيقة ، كانت الحياة زاخرة فاتنة فلا غرابة أن أقدموا على قطوفها الدانية ، فى إقبال وفى نشوة ، ولا غرابة أن عبوا من بحرها الطامى عباً ونهلوا نهلا ، فقد كان كل شىء بهيجا يغرى بالاقدام ، مستساغا يوحى بالإقبال .

وقد كان لهذا الإقبال نحو الحياة والتوفر عليها أثره الظاهر ، بما تحسه من تدفق النشاط فى كل ناحية من نواحى العيش والتفكير وما تلمسه حين ينصرف القوم إلى الترفيه عن النفس بالتسلية والترويح من تلذذ واستمتاع .

كانت الملاهى ودور التسلية مرتاداً للألوف من الناس . وكانت الأزقة الضيقة تعج بمشارب الخمر ، يلجها الشباب والكهول يشربون فلا يثملون ، ولكنهم يطربون والموسيقى تشنف أسماع الشاربين وتدفعهم إلى الرقص والى الغناء ، وقل أن خلا مشرب من موسيقى ، أو خلا مكان من الغناء والرقص ، حتى بلغ الأمر

ببعض المتبرمين أن ضاقت نفوسهم بهذا المرح الذى لا يتقيد بشىء فصبوا اللعنة على رأس الناس ووصموا العصر بالفجور والفسوق .

والى جانب المشارب والمراقص كان للشعب ملاهيه مما يشبه ميادين الرياضة فى وقتنا هذا ، وكان الإقبال عليهما موفوراً ، يتسارع الناس فيه إلى شهود صراع الدببة وقتال الديكة ، إطاعة لغريزة ثابتة فى نفس الإنسان هى غريزة القتال وما تبتغيه من تنفيس فى هذه المشاهد .

ولم يكن الشعب وحده هو الذى يقبل على هذه الملاهى بل كان السادة والنبلاء على رأس القوم يشهدون هذه الاحتفالات ويكسبونها بما يلبسون من جميل الثياب وفاخر الحلل بريقا كان لاشك واجداً أثره فى نفوس العامة والدهماء مما هو معروف عنهم من التطلع والإعجاب بأولئك الذين علوا عليهم علواً كبيراً ، ولاشك أن شكسبير فى شبابه وفتوته قد بهرته هذه المناظر المتألقة فاجتذبته لها حينا فأحاط لندن بمكنونها ، وامتلأت نفسه الفتية الحساسة بصورها .

على أن هذه المفاتن وإن كانت قد استهوت نفس الشاعر كما استهوت نفوس الشباب من أمثاله من مختلف طبقات الشعب ،

فقد ثبت أنه كان يطوف بالحانات فى قصد واعتدال، وانه كان يشارك أهل لندن فى لهوهم ومتاعهم، لم تغرقه لجتها، ولم تأسره بمفاسدها، بل بقى منها نجيا، يراها ويحسها، ويصيب منها قدراً، فى غير إسراف أو إسفاف، وهل تريد الشاعر أن يباعد بينه وبين الناس ويحيا فى برج قصى، ومن أين له إذن ذلك الاتصال الذى يوقفه على خفايا النفس حين تتكشف فى معترك الحياة أو مباذلها، ومن أين له اذا لم يصل بينه وبين الناس أن تعج تمثيلياته بالمناظر التى تنبعث من صميم الحياة وتستمد القوة والخلود من تصويرها المتقن للحياة الواقعية .

كان للندن إذن فضل غير منكور فى تزويد الشاعر بالجمهور المترقب المتطلع، والروح الوثابة الناهضة، والحياة النشيطة الدافقة تجرى فى عروقه كما تجرى فى عروق الشعب، وتلون الحياة بألوان تبعث على الاستمتاع بالجمال وهل هناك ما كان أجمل من الفن، يبدو فى مسرحيات خالدة على مسارح لندن فى ذلك الحين، وهل كان أجمل من الشاعر تنفتح نفسه لكل هذه الحياة ثم يردها على الناس جميلا فيه قربى الى نفوسهم، وفى نفوسهم أبداً ظمأ اليه .

هذا مبلغ تأثر شكسبير بالحياة فى لندن من حيث تكوين

مزاجه النفسى ، ومن حيث توفر الفرص للانتاج ، ولكن ثمت عاملا ثانياً كان له أكبر الأثر فى إنماء فنه ، وبلوغه ما بلغ من كمال وجمال ، ذلك هو النهضة المسرحية التى كانت على أشدها قبيل عهد شكسبير بالإنتاج المسرحى وإلى سنين بعد ذلك ، وإنا لنرجو أن نحلل فى لمحات خاطفة تأثر شكسبير بهذه النهضة وأن نبين أثرها الفعال فى كتابته وفنه .

نشأت الدرامة الإنجليزية نشأة شبيهة بنشأة الدرامة اليونانية فى أحضان الدين ، فكان هدفها تفسير آى الكتاب المقدس لقوم ما كانوا يستطيعون قراءة لغتهم الأصلية ، فضلا عن لغة الكتاب المقدس وهى غريبة إلا على من أصاب خطأ غير قليل من تعلم اللغتين اليونانية واللاتينية — وظلت على هذا حيناً من الدهر ، ثم غلب عليها شيطان الفن ، فأغضبت الكنيسة وعقت الدين ، وانبعثت أداة خالصة لفن خالص ، فتخلت الكنيسة عنها وأقصتها عن أبوابها بعد أن انقلب الوليد الطيع ماردا جباراً ، وأصبح فتنة للناس يصرفهم عن أمور دينهم بما يقدمه لهم من لهو .

ولم تعدم الدراما بعد انفصالها من الكنيسة من يحميها إذا وجدت ملاذاً قوياً ، عند رجال الصناعة وأصحاب الحرف يحميها

من غضب الكنيسة ، ولا سيما إذا طاوعتها السلطة الزمنية فبطشت بها فى غير رحمة ، وشردت رجالها ، أو زجتهم فى السجون ، وظلت تقضى حياة هى خليط من الضيق واليسر ، والقوة والضعف ، بقدر ما يتسع لها صدر الحكومة القائمة أو يضيق ، وحسب ما تغضى الكنيسة عنها النظر أو تتنمر لها — على أنها بقيت رغم هذا كله حبيبة الى قلوب الناس ، إن ضاقت بها المسارح العامة ، سعوا اليها فى المسارح المتنقلة ، وإن حيل بينها وبين هذه فلا بأس من أن تلتمس فى بيوت السادة والنبلاء ، يظلون فرق الممثلين بالرعاية وينشرون عليهم سلطان الحماية وينسبونهم إلى بيوتهم إنجاء لهم من سطوة القانون .

ولسنا هنا فى معرض الدراسة المستوفاة لما تقلبت فيه الدرامة من سير إلى التقدم أو تردى إلى نكوص ، ولكن الذى نريد أن نقرره هو أن للدراما أسسا وحياة قائمة قبل عهد شكسبير وأن ميدانها لم يكن خاليا من فرسانه ، فقد كان ثمت كتاب معاميد فى مسرحياتهم قوة ، وفى شعرهم روعة وجمال قبل أن تطلع عليها شمس الشاعر الجديد ، ولم تكن لندن خلواً من مسارحها ، ولم تكن دنيا المسرح خلواً من المسرحيات ، بل إن من بين أقران

شكسبير من كان يبزه فى وفرة الإنتاج وضخامة المحصول الأدبى، وانبساط المدة التى قضاها فى خدمة المسرح والشعر، أليس الكثير من النقاد يذهب إلى اعتبار ابن جونسون هو دعامة المسرح الإنجليزى لأن إنتاجه امتد ستا وثلاثين سنة فى حين أن شكسبير لم يكتب للمسرح أو لم يعش له إلا بين سنة ١٥٩٠ و سنة ١٦١٣

نعم كان المسرح مزدهراً عامراً ، والناس مقبلون عليه ، تقدم إليهم ألوان مختلفة من المسرحيات لا يستطيع الناقد أن يميز فيها لونا خالصا ، أو يطلق عليها إسماشاملا ، بل كانت شتاتا من الكوميديا والتراجيديا ، أو مزاجا بينهما ، فقد هم أصحاب المسارح وكتاب المسرح إرضاء الجمهور بتقديم المسرحيات التى توافق هواه وتتمشى مع رغباته ، والجمهور يذهب على أساس أنه ملاق هناك ما تشتهى نفسه وما يتوقعه ، والمؤلف والممثل يصيبون رزقهم من دراهم النظارة وجزاءهم الأدبى من بسماتهم ودموعهم .

لقد بلغ عدد مسارح لندن قبيل شكسبير وفى أوائل عهده ثمانية لمدينه لم يكن عدد سكانها يزيد على مائتى ألف ، وفى هذا دليل بالغ على انتشار هذا النوع من الفن انتشاراً ما نحسب إلا أن شكسبير قد لمسه وتأثر به ، وهو يقضى تلك السنوات الاولى

من حياته فى العاصمة يؤلف أو لايؤلف ، ويعمل أو لا يعمل ، مما لا نستطيع له إثباتا أو تحقيقا ، وما لايعنينا أن نصرف جهداً فى إثباته وتحقيقه مادام قد ظهر حين ظهر كاتبا مسرحيا مكتمل العدة مهيأ له أسباب الظفر ، ولكن الذى يعنينا حقا هو كيف كسفت شمس شكسبير هذه الكواكب اللامعة فى سماء المسرح الانجليزى وقد عاش المسرح على جهودهم سنوات ، ناعما بتواليفهم قانعا بها فيما يبدو ، غير متطلب عنها بدلا أو متطلع إلى جديد . ترى أى نقص فى الكتابة المسرحية استكمله شكسبير ، وأى ضعف سيره إلى قوة ؟ ؟ وما مبلغ ما أخذ من أعلام المسرح فى ذلك الحين . . . . ؟ ؟

كان كتاب المسرح جلهم إن لم يكونوا كلهم من أولئك الذين أحسنوا الصلة بالآداب القديمة ، وأجادوا اليونانيه واللاتينية قراءة وأدبا وتأثروا تأثراً مباشرا فعل فى نفوسهم فعل السحر ، ودفعهم دفعا الى أن يرقوا رقى الفحول من كتاب التمثيليات اليونانية حتى جاءت مسرحياتهم إحياء لتلك وسيرا على غرارها ، على أنهم وإن كانوا قد أحسنوا الدرس وأجادوا الصنعة لم تتح لهم تلك النفحة القدسية التى تنفح الشعر فى نفوسهم فتجعل منهم أصحاب فن رفيع

لا أصحاب صنعة متقنة ، ولعل لفارق بينهم وبين شكسبير وقد أخذ عن القدامى ، كما أخذوا أو أخذ عنهم ما التمسوه عند القدامى إنك تلمس فى كتاباتهم أثر المجهود وخشونة التقليد فى حين يغيب عنك ذلك فى شكسبير لانه أخذ كما يأخذ الكفء من الكفء والند من الند ويضفى على ما يؤخذ من صفاء نفسه ومعين شاعريته ما يحيلها خلقا جديداً .

على أن فهم الأمور على هذا النحو لم يكن بالمستطاع عند كتاب المسرح فى ذلك الحين فقد كانت الكتابة وفقا عليهم أليسوا الامناء على تراث الاقدمين والحفاظ على الذخيرة القدسية بما أصابوا من علم باليونانية واللاتينية وما هيأوا من سبيل الى الكتابة المسرحية بالشعر المرسل

— لقد كان يستعر الخلاف فيما بينهم على نواحى الكتابة المسرحية وما يجب أن يتوفر لها من صفات ومبلغ ماتسمو اليه بالقياس إلى المثل العليا فى الكتابة عند اليونان كما كانوا يختلفون تقديرهم ما يقدم من مسرحيات وحظ كل منها من الاجادة أو قصورها عنها ، وقد كان يغيظهم أن ينفرد واحد منهم بالسلطان أو يعقد له لواء التفوق فهذا مارلوا (Marlowe) وهو واحد من نوابغ

الجامعة (University Wits) كما كانوا يسمون فى ذلك الحين رفضت الجماعة أن تقر له بالزعامة ، وأن تعترف له بالسبق وهو إمام الصنعة ومحبوب الجماهير ، فكيف يكون موقفهم إذا طلع عليهم رجل جديد ليس ممن أصاب حظاً من العلم ، بل هو من طبقة الممثلين ، فحاول أن يبزهم فى ميدان هم فرسانه المصلون والمجلون ؟! . .

لم يكن شكسبير من طراز مارلو ، وناش ، وجرين وأضرابهم من كتاب المسرح الجامعيين الذين انفردوا فى ميدان المسرح يكتبون والناس يتقبلون ، وعلى هذا فقد كان اقتحامه ميدان التأليف المسرحى أمراً ليس سهلا ، ولا وقعه على نفوسهم مستطاباً ، ولا سيما إذا كان يعمد إلى بعض الكتابات فيأخذها بالتهذيب والتنقيح ، فإذا هى تبدو كأنما خلقها خلقاً ، وابتدعها ابتداعاً ، ولا شك أن هؤلاء الكتاب قد ملأ نفوسهم السخط على هذا المزاحم الجديد ، وغاظهم أن تصادف مسرحياته رواجا حرمت منه مسرحياتهم ، وكان أول من ثار عليه وتأثر بالحقد وتوقع البلاء هو جرين ، فقد كان أكبرهم سناً ، وأقربهم إلى اعتزال الكتابة المسرحية بعد أن لم يجد فيها غناء لنفسه ولا دفعاً لعادية الفقر

كتب جرين رسالة إلى أصحابه الكتاب يلفتهم للخطر الداهم ودفع بها إلى تشتل (Chettle) الناشر ولعله كان أكثر إحساساً بالشر منهم وأقربهم الى إدراك أن شاعراً جديداً قد بزغ نجمه متألقاً لامعاً ، فختم رسالته بعد وصم شكسبير بالسرقة والعدوان وتداخله فيما لم يهيأ له بأن وجه النصح إلى هؤلاء الكتاب مشيراً عليهم فى سخرية لاذعة ، أن قد آن الأوان أن يحطموا أقلامهم وينزووا فى عقر دورهم ، مادام حمى الفن قد استباحه هذا الدخيل وجال فيه جولات موفقه . . .

على أن شكسبير لم يكن براء مما رماه به جرين ، فمن الثابت أنه لم يصب مثل حظ الآخرين من الآداب القديمة ، ولم تعج كتاباته بالصور المنتزعة من الميثولوجيا اليونانية كما عجت كتاباتهم ، وأنه قد أباح لنفسه أن يفيد من كتاباتهم ، وأن يعيد كتابتها بحيث تتفق وحاجات المسرح ، ومن الواضح أيضاً أنه وضع أمام عينيه مسرحيات مارلو وتأثر بها الى أبعد الحدود ، فريتشارد الثالث التى كتبها شكسبير تنطق فى غير خفاء بتأثرها بتامبورلان التى كتبها مارلو ، وريتشارد الثانى لشكسبير ليست إلا صنواً لإدوارد الثانى من مسرحيات مارلو ، ولكن العجيب حقاً هو كيف استطاع

شكسبير وهو على هذا الحظ القليل من العلم أن يبز أولئك الكتاب وقد أخذ عنهم وتناول كتاباتهم بالمراجعة ، وإنا لانرى بأساً من أن نجيب على هذا إجابة عابرة وإن كان لنا عودة اليها فى موضع آخر من الكتاب ، السر فى هذا أن شكسبير كان أوسع مدى من هؤلاء وأنه هيء له أن يتقبل ما ينقل اليه وما يقرأه فلا يتخم به بل يتمثله فإذا هو فى قرارة نفسه ، وإذا هو متصل هناك بما احتوته تلك النفس من آثار سابقة ، فإذا هو رده مرة أخرى الى الإنتاج ، لم يكن صورة ممسوخة لما أخذ ، بل بدا كأنه من صنع يديه ومن فيض خياله ، إن ميزة الكاتب المسرحى ليست فى ابتداع موضوعه ، وما أظن صور الحياة الإنسانية تتغير من عصر الى عصر ، ولكن الذى يتغير هو الشكل الذى تصاغ فيه هذه الصور ، وتصويرها بحيث تزدهر بالحياة ، وبحيث تبدو كأنها فى ذاتها هى هذه الحياة الدنيا بما وسعت من خير وشر ، لها اتساعها ، وفيها تنوعها ، وبين ثناياها عظاتها وعبرها ، وما أحسب أن أصحابنا الجامعيين كانوا على القدر الذى أصابه شكسبير من هذا ، وما هو بعلم الكتب ، وما هو بالذى يلقنه الأستاذ ويحصله التلميذ ولكنه نفحة الالهام وإشراق العبقرية وقد كان

حظ شكسبير منهما هو حظ الموهوب المختار ، يقع على النفس المطمئنة فتتقبله وتصرفه إلى خير ما يصرف له .

على أن الميدان وهؤلاء فرسانه ما لبث أن خلا بوفاة جرين بعد رسالته بقليل ، ومقتل مارلو بعده بسنة ، وموت كيد (Kid) سنة ١٥٩٤ ، وانصراف ناش وليلى وبيل إلى غير التأليف المسرحى بعد أن أيقنوا ألا فائدة ترجى من الاسترسال فيه . . . .

ولكن شكسبير لم يكن ليتهيأ له هذا الفوز على هؤلاء الكتاب وهو فى مبدأ عهده بالإنتاج ، دون أن يكون له من عطف أصحاب الجاه والسلطان ما يدرأ عنه عادية السوء وهو العامل الثالث الذى كان له مع العاملين السابقين أثر كبير فى شكسبير الرجل ، وشكسبير الشاعر ...

إن الإشارة الكافية التى تضمنها كتاب جرين إلى صحابته من مؤلفى المسرحيات ، واتهامه شكسبير بالسرقة والعدوان على ما ليس له ، وما لا يليق له أن يتعرض له ، استتبعت اعتذاراً رقيقاً من الناشر « تشتل » حاول به أن يبرىء نفسه مما رمى به الشاعر ظلماً مؤكداً أنه لم ينشر الكتاب إلا جهلا منه بشخصية شكسبير وأنه وقد ألقى اليه كلام من جماعة من النبلاء وما وقف عليه من

استقامة خلق الشاعر وما يمتاز به أسلوبه من جمال وقوة، لا يسعه إلا أن يعتذر إليه .

وما كان الناشر يعنيه أن يتقدم بهذا الاعتذار الى الشاعر الا تحت تأثير عاملين أشار اليهما ، هما اقتناعه أولا بأن التهم التى كالها جرين لفن شكسبير ليست على شيء، وثانيا ما أحدثه فى نفسه تدخل جماعة من النبلاء ممن يقيم لرأيهم فى الكتاب والكتابة وزناً كبيراً، وما أكدوه له من أن شكسبير لم يكن بالرجل الذى يقتات على فتات غيره، وان له من قوة شخصيته وقدرته مالا حاجة معه الى التماس المزيد من آثار الكتاب الآخرين. فمن هم هؤلاء السادة الذين لم يرضهم أن يصاب الشاعر فى صميم مايعتز به الأديب دون أن ينهضوا للدفاع عنه، ورد عاديه الكاتب الموتور عليه ؟ الثابت أن شكسبير كان يستمتع بصداقة ورعاية نفر من النبلاء ، وانه حرص على هذه الصداقة وعمل على انمائها ، لا بالملق يزجيه الى هؤلاء ، بل يبذل من خالص عبقريته كما يبدو فى مسرحيات الفترة الأولى من انتاجه ، وان الذى يقرأ الكوميديات الأولى ليحس انعكاس هذه الصحبة فى خيال الشاعر وتصويره ، بما تزخر به هذه الكوميديات من تصوير بارع زاخر بالشباب ، وما يعنى به الشباب من النبلاء من أمور الحياة ، وما يصرفون فيه وقتهم من

عمل أو لهو ولا شك أن استجابة هؤلاء لهذا اللون من التصوير كان استجابة كاملة مصدرها التقدير والاعجاب ، ومبعثها ما كانوا يحسون فى الشاعر الشاب من روح شابة فتية ، هى صورة لما يجرى فى عروقهم من دم ورغبة فى الحياة وتوافر على الاستمتاع ونهوض بحق الروح والجسد فى اعتدال وتناسق .

أن الشاعر الذى التهبت نفسه احساسا بما أحس به أبناء عصره ، ولا سيما أولئك الذين قارب السن بينه وبينهم من تقدير للجمال فى كل شىء ، حمل اليهم من تصويره تمثالا حياً من الجمال الذى ملأ نفسه وملأ الكون من حواليه ، لم يكن الحب وهو المحور الذى دارت حوله تلك الكوميديات والتراجيديات فى مفتتح حياة الشاعر ليتمثل فى نفس الشاعر وفى أنفس هؤلاء الشباب إلا رمزاً حياً لهذا الشعور بالجمال فى كل ماتزخر به الحياة من صور شعورا يلهب نواحى النفس ويعينها على الاستمتاع فى صحة وفى قوة وهو ان كان فى نفسهم شعورا فهو فى عنق الشاعر دين واجب الاداء لنفسه ولفنه ولجمهوره .

فليس عجيبا اذن ، أن يتبادل شكسبير وهؤلاء المعجبون به الحب والوفاء وبينه وبينهم هذه القربى فى نواحى الفكر والشعور

وهو يرى فيهم جمالا يستوقف النظر ويستأهل التصوير فيخلد حياتهم فى مسرحياته وهم يرون فيه اللسان الناطق بما يختلج فى نفوسهم ، وما يضطرب به شعورهم . فليس عجيباً أن يكونوا جميعاً فى الوقوف بينه وبين حساده وشانئيه ، وأن يكونوا جميعاً بحيث يشجعون الشاعر الشاب على المزيد من هذا السيل الحلو من الشعر الجميل ، ولكن جمهور الشاعر وإن كان يؤازره بالمساعدة لم يكن يستطيع أن يضمن للشاعر حياة متصلة بعيدة عن عاديات الأيام، ولم يكن له النفوذ الذى يدفعه دفعاً إلى تصدر الكتابة المسرحية والوصول إلى رضا أصحاب النفوذ من السادة النبلاء .

لابد أن كان للشاعر - وقد كان له - ظهير قوى من علية القوم ممن اجتمعت لهم أسباب السلطان والقربى إلى الملكة فى عصر كانت هذه القربى هى كل شىء ، ولعل علاقته بواحد من هؤلاء النبلاء هو الأيرل أوف ساوثهامبتون لعبت دوراً هاماً فى حياة الشاعر ، وفى الاتجاه الذى سلكه وإليها ترجع طائفة كبيرة من الإشارات التى اضطردت فى كتابته .

على أن هذه العلاقة بين رجلين باعدت بينهما فروق كثيرة كانت موضعاً للكثير من الأقاويل وإن كنا نستطيع أن نرى الآن

أنها لم تكن إلا ارتباطاً بين قلبين جمعت بينهما الوحدة فى التفكير والتقارب فى السن ، والتشابه فى الذوق الفنى .

لا نستطيع أن نقول أن شكسبير كان يتملق الأيرل أوف ساوثهامبتون ، ولا نستطيع أن نقول أنه اتخذ الزلفى إلى النبلاء سبيلا إلى الظهور ، ولم نظن به الملق إذا هو أصفى الود شاباً ثبت أنه كان من خيرة النبلاء خلقاً وخلقاً ؟ ألم يكن شاعراً يحس الجمال فى كل شىء ؟ وهل كان ساوثهامبتون إلا مثلا أعلا لما يجب أن يكونه الشاب السيد النبيل ؟ وهل من عجب إذن أن نمت بين الرجلين صداقة بعثها الاعجاب المتبادل بالرجولة المكتملة والنفس المهذبة من ناحية ، وبالفن الجميل الرفيع من ناحية أخرى ؟ كلا لا عجب أن فتن الشاعر بصاحبه النبيل فتوناً ، وأغدق عليه من المديح والتمجيد ما وسعته نفسه الجميلة ، أنه ليشبهه بيوم من أيام الصيف الجميلة ، لا بل يزيده عليه رقة واعتدالا ، ولا عجب أن غنى محاسنه فى مقطوعاته الغنائية (Sonnets) وقد كانت كلها وقفاً على النبيل ، وإشادة بذكره ، وتخليداً لذكره ، وإظهاراً لصورة بارعة لمفاتن الرجولة المهذبة ، والنفس التى رققت حواشيها النشأة المجيدة ...

إن الذين يتهمون العلاقة بين الشاعر والنبيل يجنون على الود ويرمون الشاعر بما هو براء منه ، لقد كان باب الملق إلى ربة التاج مفتوحا يستطيع أن يسلكه فيجنى منه خيراً كثيراً ، ولكن شكسبير لم يجر مجرى الآخرين ، بل آثر أن يكون مقتصداً أشد الاقتصاد فيما امتدح به الملكة ، فى حين انسال قلمه وتفتح قلبه بالحب والاعجاب . يتوج به مفرق صاحبه النبيل فى وفرة تحسبها أميل إلى الاسراف .

إن من الحق أن نتناول هذه العلاقة كعاطفة مخلصة أوحت بها سجايا الشاب النبيل وما فطرت عليه نفسه ، من حب للفن وتقدير له ولأصحابه ، إعجاب خالص دفع الى حب خالص لا يبتغى شيئاً من عرض الدنيا ، وإن كان قد أفاد شيئاً من حماية النبيل فانما أفاده جزاء وفاقا لما قدم من حب ، وثمنا لما أنتج من آيات فنية رائعة ،

على أن إعجاب الشاعر بصاحبه لم يكن كما أشرنا من قبل من ذلك النوع الذى ينسى الشاعر مابينه وبين النبيل من فروق اجتماعية فى عصر كان للطبقات فيه حدود قائمة ومقام محفوظ ، وما كان لشكسبير أن ينسى البون الشاسع الذى يضرب بينه وبين صاحبه

بسياج أمنع من أن تجتازه عواطف الحب والود ، ألست تراه يصور ذلك تصويراً هو آية البلاغة فى قوله : —

لقد أحببت نجماً ثاقب النور ملتمع الضياء
وبدا لنفسى المتعطشة ان تحظى بالقرب منه
ولكن بينى وبينه مراحل لا أستطيع لها اجتيازا
ودونه آفاق لا أقدر لها وردا
فحسبى أن انعم بالا يشعه من نور
دون أن تمتد يدى الى الامساك به

إن فى هذه الاشارة بيانا صحيحا وصورة حقة للعلاقة التى كانت تربط بين الرجلين وعلى أساسها نستطيع أن نفهم ذلك القصص الطويل الذى تزخر به المقطوعات الغنائية من تلك التى تتناول ما كان بين الشاعر وصاحبه من خلاف حول غانية سمراء كلف الشاعر بها حباً ، ثم سلبها منه صديقه النبيل مما سنفصله فى مكان آخر من الكتاب .

ولكن كيف قدر لشكسبير أن يتصل بهذا النبيل الشاب وبينهما هذه الفروق وأن يهيأ الفرصة لتقوم بينهما هذه الصداقة وأن يكون لها هذا الأثر فى شعره ؟

يظهر أن ساوثهامبتون لم يكن أول نبيل استظل الشاعر بظله وأنه جرياً على عادة الشعراء والأدباء قد التمس الحماية عن طريق الاتصال بلورد سترانج وهو من المقربين إلى إسكس صفى الملكة وخليلها ، والقابض على زمام الأمور حقبة طويلة من الزمن ، ويظهر أن شكسبير عمل على رأس جماعة من الممثلين تنتسب الى لورد سترانج كما كان المتبع المألوف وأن هذه الجماعة قدمت الى إسكس فنالت حظوة لديه وأعجب بها إعجاباً دعاه الى أن يهيء لها أسباب القيام بسلسلة من الحفلات فى بلاط الملكة فأصابت هناك أيضا من النجاح والتوفيق ما جلب اليها الأنظار ولا سيما الى الشاعر الذى كانت مسرحياته مفخرة هذه الجماعة ، وأن رجلا كشكسبير عرك الحياة وخبرها ، لم يكن ليخفى عليه ما يستطيع أن يفيده من نفع اذا أحسن اتصاله بهؤلاء النبلاء ، ولا شك أنه كان صادق الحساب ، فإن جماعته التمثيلية ضمنت بهذه الحظوة لدى إسكس حياة مطمئنة وأمناً من الخوف والحاجة ، وليس بعيداً أن يكون إسكس وقد أعجب بالشاعر ، قد ظلله بحمايته وأن يكون هو الذى دفع الى « تشتل » الناشر بذلك الكتاب يضع

حداً لما يراد بالشاعر من سوء ، وما قد تصاب سمعته الأدبية من شر دفع اليه الحسد .

فى هـذا المحيط وعلى هذا المسرح ، نرجح أن يكون اللقـاء الأول بين شكسبير وساوثهامبتون ، فقد كان ساوثهامبتون من أقرباء إسكس والمقربين اليه والمشايعين لسياسته .

ولا شك أن اللقاء أحدث أثراً سريعا من الإعجاب المتبادل تطور الى صداقة فيهـا من جانب الشاعر نصح وإرشاد ، ومديح وثناء ، ومن جانب النبيل ، اخلاص وحمـاية وتشجيع ، وأن القارىء للمقطوعات الغنائية (Sonnets) لا يجهده أن يتتبع تطور هـذه العلاقة مما بدأت من نصح ، ثم حب ، ثم غضب وفتور ، ثم عودة الى الصداقة .

ولا شك أن شكسبير قد أفاد من صـداقة النبيل يوم أن أصاب صناعة التمثيل والكتابة المسرحيـة الكساد حين أغلقت مسارح لندن فى أيام الطاعون ، وأن الجماعة التمثيلية التى كان يؤلف لها ويعمل معها ، لم تتشرد فى الأرض كما تشردت الفرق الأخرى ، بل مكن لهـا من العمل فى بيوت النبلاء من أشـياع إسكس وساوثهامبتون ، وأن الشاعر قد استعان بهذا على المضى فى إنتاجه

غير متوقف ولا ممتنع ، وفى ظل ظليل من الطمأنينة والدعة

بيد أن المقطوعات الغنائيـة لا تستكمل فصول هـذه القصة الطريفة ، فلسنا نعرف ما كان بين الصديقين يوم ضرب الدهر ضربتـه فأطاح بإسكس وساوثهامبتون وأذهب عنهمـا السلطان وإن كنا نلمح أشياء فى المسرحيات تشير إلى ساوثهامبتون وإسكس وتتغنى بهما رغم ما حاق بهما من نكبة .

أما وهذه الأسباب قد توفرت وهذه العوامل قد اكتملت من حياة تضطرم بألوان من التجاريب باعثـة على النشاط ، جمة الإلهام ، واتصال بنهضة مسرحية قائمة تدفع الى المنافسة والتفوق وصداقة تعين على الإنتاج فى غير اضطراب أو خوف ، فما أجدر الشاعر أن ينطلق فى ميادين المجـد ، منتقلا من نصر الى نصر ، مسجلا آيات بينـات من الشعر الرائق الجميـل ، والتصوير الفنى الرائع ، وأن يمضى قدما إلى زعامة المسرح الانجليزى فيتسنم غاربه وأن ينعقد له لواء الصدارة فى دنيا الأدب بما فاضت قريحته من مسرحيات خالدة .

الفصل الثالث

أوج العبقرية

سنة ١٥٩٢ — ١٦٠٨

أورث شكسبير أدب اللغة الانجليزية ، بل أدب العالم كله ، تراثاً خالداً من الشعر التمثيلى ان تذهب الأيام بروعته ، أو تبلى جدته ، وأن التمثيليات الستة والثلاثين التى كتبها فى السنوات التى عالج فيها الكتابة المسرحية ، ستبقى مدى الأيام والسنين تمثالا قائماً لقوة التصوير المسرحى ، وثروة ضخمة من الشعر الرفيع ، هما بمثابة الأثر الخالد ، والمنبع الصافى الذى نستمد منه كل ما يروح عن النفس من غذاء عاطفى وفكرى .

لم يكن دخول شكسبير دنيا الأدب المسرحى فى ذاته إلا حادثاً مسرحياً مكتمل التأثير ، لم تسبقه مقدمات ، ولم تتقدمه فترة طويلة أو قصيرة من المحاولة والتجريب ، إن الصعود إلى أوج

المجد كان سريعا ، وارتقاء القمة كان يسيراً ، لا يعتور طريقه جهد ولا مشقة ، فلم يمض إلا القليل بعد رسالة « جرين » إلى « تشتل » الناشر ، تلك التى أراد بها أن يحطم شكسبير تحطيما لا قيامة بعده ، والتى وصمه فيها بالسرقة الأدبية والعدوان على كتابات غيره من الشعراء ، حتى تبوأ الشاعر مكانا ملحوظا فى الصدر من الصفوة المختارة من الشعراء وكتاب الأدب المسرحى بعد أن طلع على الناس من فيض عبقريته بقصيدتين هما فينوس وأدونيس ، واغتصاب لوكريس ، لم يفصل بينهما إلا حقبة قصيرة من الزمن ، وظل إلى ست أو سبع سنوات ، سيد الأدب المسرحى غير منازع ، وذلك بعد أن انصرف كتاب المسرح عنه ، أو قضى عليهم الموت ، والذى لا شك فيه أنه حتى نهاية هذا القرن لم يكن فى لندن كاتب مسرحى يستطيع أن يقف من شكسبير موقف الند ، ولم تكن هناك مسرحيات نستطيع أن نضعها فى مرتبة واحدة مع أى من مسرحيات شكسبير تلك التى أمطر بها المسرح فى غير انقطاع

ولم يكن إدراك هذا النور الجديد وتقديره ليخفى على الأدباء المعاصرين وجمهور المسرح وهم قوم أحسنوا تذوق الأدب المسرحى فأغدقوا على الشاعر المديح ، وأقروا له بالتفوق ، وخلعوا

عليه الكثير من صفات التعظيم والتمجيد وهذا «ميريس» Meres يكتب عنه فى سنة ١٥٩٨ فيضعه جنبا إلى جنب مع أساطين القدامى من مؤلفى المسرحيات اليونانية و « ميريس » هذا هو الناقد الذى اشتهر بين قومه بصدق النظر، واعتدال التفكير، والسمو عن الغرض.

وإن من يقرأ هذه التمثيليات ولو قراءة عابرة، يستطيع أن يتعرف فيها ثلاث مراحل لكل منها صفاتها الخاصة ولونها المميز الذى ينطق بما امتلأت به حياة الشاعر من حوادث، وما حفلت به الحياة فى عصره من صور انعكست فى كتابته وبدت فى استجابته لرغبات جمهوره، والجماهير دائما تتقلب فى أهوائها من حال إلى حال. هذه الفترات الثلاث تتمشى مع انتقال الشاعر من أيام الشباب الحلوة المرحة إلى كمال الرجولة، ثم إلى وقار الشيخوخة وهدوء النفس، بعد صراع الأيام ومجالدة السنين، وأن القارىء لتطالعه فى وضوح صور مرحة، بهيجة، حرة، طليقة، ثم أخرى عنيفة دامية، وثالثة هادئة ساخرة هى أشبه ما تكون بضحكة الشيخ واستسلامه بعد أن عرك الأيام وتكشفت له حقائق الأشياء خالصة من فتنة الشباب وعنفوان القوة.

فى تلك السنة والثلاث سنوات التى تلتها حتى سنة ١٦٠١ ، كتب شكسبير مسرحياته التى تعالج حوادث تاريخية و « حلم منتصف ليلة صيف » و « روميو وجوليت » وبقية الكوميديات ذات الطابع الضاحك المرح .

وكأنما كانت هذه المسرحيات شاحذة لقوى العملاق ، فما أوشك على نهايتها حتى كانت قد اكتملت فى يديه الصناعة بعد أن كان قد اكتمل فى نفسه المعين السحرى الذى هو تراث العبقرى وحظه الموهوب ، لم تعد الأداة تسير بين يديه إلا طيعة سلسلة منقادة بعد أن هذبتها الأيام وجعلتها تحمل العبء فى يسر ورخاء ، لا نقول أن هذا كان دور التجريب والتعلم ، فإن من بين هذه المسرحيات ما لا يمكن اعتباره تجربة مجرب ، ولكنه الانتظار حتى يتوفر الانسجام بين الشاعر والأداة التى سيحملها كتابته من شعر منظوم وشعر مرسل ، حتى إذا تهيأ هذا الانسجام ونهضت الأداة بالرسالة شارفنا شكسبير فى سنة ١٥٩٣ يمشى بخطى جبارة لا تحسب أنها تتعثر أو تنوء بعد أن طرح عن نفسه مارلو وارتسام خطاه ، ومضى فى طريقه يخلق الشخصيات خلقاً أو يكسو ما كان منها قديماً كساء يذهب بها جديدة على مر الأيام

وتقلب العصور فى الملك جون King John نراه ينساب طليقاً . لا أثر لمارلو فى كتابته ، وفى جزأى هنرى الرابع وهنرى الخامس يصل شكسبير إلى قمة هذا النوع من المسرحيات فهو فيها سيد الكتابة ، تسير بين يديه منقادة ، وهو فيها يصل إلى إبداع لامزيد عليه فى خلق الشخصيات ، ومزج عنصرى الفكاهة والمأساة فى شخصيتى فولستاف المرح ، الطروب ، الإباحى ، المتحرر من تقاليد المجتمع ، وولى العهد فى صباه ، وفى صرامته ، إذا ما تسنم العرش وخلع عن نفسه ثوب المجانة .

إلى هذه الفترة من حياة الشاعر الكتابية نستطيع أن نرجع روميو وجوليت وما فيها من تصوير عاطفى شائق ، ألم يذهب الإسمان علمين خفاقين على الحب ودولة العشاق ، أو يستطيع أمرؤ أتيح له أن يشهد منظر الشرفة أو قرأه قراءة فهم وتذوق ألا تبقى فى نفسه منه أصداء ترجع بالحنين وتعتلج بالحب ، الحب الذى هو تقديس لهذه العاطفة الشريفة والسمو بها فوق الشهوات والنزوات . . . .

وإليه أيضاً ترجع تلك القطعة الخالدة من التصوير الأثيرى الرقيق « حلم منتصف ليلة صيف » والتمثيلية الباقية على الزمن

« تاجر البندقية » وما فى حوارها من مهارة التصوير ، ثم « جعجعة بغير طحن » (Much Ado about Nothing) و « كما تحبها » و « الليلة الثانية عشرة » .

حتى إذا سلخ شكسبير عام ١٦٠١ وذهب عنه الشباب ومرحه ، ابتدأ العصر الذى أحس فيه الشاعر أنه مستطيع أن يتعرض إلى عناصر فى الحياة هى أغزر وأقوى من مجرد الفكاهة والعبث ، وإنك لترى الكوميديا كما كتبها فى تلك الحقبة فى رواية « صاعاً بصاع » و « خيراً ما ينتهى بخير » و « ترويليس وكريسيدا » لا تضج بالضحك المرح ، بل تكاد تقف بين التراجيديا والكوميديا فالضحك فيها غير منطلق منساب ، بل تخالطه لذعة السخرية ، ولا عجب فهى ضحكة الرجل الذى عركته الحياة وأذهبت من قلبه تلك السلاسة والتحرر من هموم الحياة ، والانفكاك من أعبائها الجسام . . .

فأى حادث جلل ضرب بين هاتين الصفحتين فى حياة الرجل وكتابته ضرباً جعل منهما نقيضين لا يلتقيان إلا فى قوة الشعر وفحولته ، وبراعة التصوير وجلاله ؟ لقد ذهب النقاد فى تفسير ذلك مذاهب شتى ، فمن مرجع ذلك إلى ما أصيبت به نفس الشاعر

وقد نكب فى حبه وصديقه كما تشير إلى ذلك القصائد ، ومن ذاهب إلى أنه وقد أحس بعض الفشل فى حياته كممثل قد اكتأبت نفسه وأظلمت نواحيها فمال إلى هذا اللون العنيف من الكتابة المسرحية، على أن الثابت تاريخياً هو أن شكسبير قد نكب بوفاة أبيه فى تلك السنة ، وأن وليه وصديقه الأيرل أوف ساوثهامبتون ومن فوقه إسكس ، أحاقت بهما نكبة أطاحت بمجدهما على أثر اكتشاف مؤامرتهما ، ونحن أميل إلى تصديق هذا الرأى والأخذ بهذا المذهب ، أليست هذه هى السنة التى أخرج فيها شكسبير يوليوس قيصر وما فيها من السمو بشخصية بروتوس المتآمر على شخصية يوليوس قيصر الذى سفك دمه .

على أن هناك سبباً آخر يصح أن يكون إلى جانب ما ذكرنا باعثاً إلى هذا الانحراف من جانب المرح إلى جانب العنف هو ما يحسه الكاتب المسرحى من إرضاء أهواء جمهوره وإن كان شكسبير قد عمل أكثر من أى كاتب آخر على الحد من غلواء الشعب وتعطشه إلى مشاهد القتل الدامية والمآسى الحزينة العاصفة. نعم لا بد أن كان ثمت رجعة إلى هذا اللون من المسرحيات وقد كان سائداً فى بدء أيام شكسبير وكان له الفضل فى أن يصرف

جمهور المسرح عنه وأن يسمو بأذواقهم إلى إدراك أرقى وأرفع من مجرد إرضاء غرائز القتال وامتلاء النفس بها فهل هو متأثر بهذه الرجعة وهل هو مستجيب إلى جمهوره استجابة المتزلف ، أم هو مرض جمهوره ونفسه معاً ؟ لقد كان لشكسبير من القدرة والقوة ما يجعله يصيب الغرضين بغير أن يعرض أدبه المسرحى إلى ابتذال أو أن ينحط إلى مستوى السوقة والدهماء ، وهـذا ما تفسره مسرحياته فى السنوات التى بدأت عام ١٦٠١ وتلته ، فقد وافقت هذه السنوات ظهور « هاملت » عام ١٦٠٢ و « عطيل » عام ١٦٠٤ و « الملك لير » سنة ١٦٠٥ / ١٦٠٦ و « ماكبث » عام ١٦٠٧ ، وفيها أيضاً كتب شكسبير « تيمون الأثينى » و « صاعاً بصاع » (Measure For Measure) و « ترويلوس » و « كريسيدا » وأنهى سلسلة مسرحياته الرومانيـة بكوريولانوس وهى مأسـاة تصور حياة رجل تحالفت الأيام على قهره ، والنيل منه وعصفت به ، فلا هو محبب إلى الشعب بما جلبه من نصر ، أو دفع من خطر ولا هى تقر له فى شىء البعد عن ذلك الشعب الجاحد حتى يستعان به على قهر الأعداء والذود عن الوطن واتقاء الخطر الداهم ، فهو

موزع بين أهواء هذا الشعب ، وبين كبريائه ، وبين ما يساق اليه من سفارة الأم والزوج ، وتنتهى حياته العنيفة انتهاء دامياً .

وكأنما كانت هذه الحقبة كافية لتستنفذ كل قوى الشاعر من الشدة والعنف ، فما يكاد يقبل عام ١٦٠٨ حتى ينفض يديه من هذا الصراع ويخلد الى سكون ، كذلك الذى يلى العاصفة فيكتب بريكليس ، وسمبللين ، وقصة الشتاء ، والعاصفة . ثم يستدير على عقبيه فإذا به يقفل راجعاً إلى بلده الوادع الأمين فى سن الثانية والخمسين بعد أن خلف هذه الثروة الطائلة الزاخرة ملكا حلالا لكل عاشق للجمال مفتون ببراعة التصوير .

ولعل من الخير أن نتناول الأسباب التى مكنت لشكسبير هذا المجد وسمت بكتابته درجات فوق معاصريه ومن جاء بعده من أدباء المسرح .

لعل أولى الصفات التى وفرت لشكسبير هذا ، هى قدرته العجيبة وتنوع مناحيها ، وإنك لواجد بالمقارنة بينه وبين سابقيه أن ثمت أجزاء من مسرحياتهم نستطيع أن نضعها منفردة إلى جانب مثيلاتها فى شكسبير ولكن الذى يعجزك حقاً أن تجد مسرحية كاملة تستطيع أن تطاول أخرى من مسرحيات شكسبير

ذلك لأن كلا منهم قد أصاب قدراً من قبس العبقرية غشيت به عيناه فانحبس فى حدوده لا يستطيع منه فكاكاً ، على حين أن شكسبير قد استطاع أن يجمع هذه وتلك ، وأن تلتمع فى نفسه كل إشراقة عبقرية ، وما نقول أن هذا نتيجة الجهد المضنى ، وتحصيل الكد ، ولكنه النبوغ والإلهام لا يحتويه مكان ، بل ينطلق كالطير ، بل هو النفس المستفيضة ، اجتمعت لها عناصر التفوق كاملة ، وازدحمت فى جوانبها الخواطر ، فما ضاقت بها أو نأت ، وما يتيسر للنفس هذا حتى تكون قد أصابت قدراً كبيراً من المرونة وسهولة التكيف حتى نستطيع أن نخلص من حال إلى حال ، وقد كانت نفس شكسبير من ذلك الطراز الضخم تتقبل ولا تجمد ، وتأخذ وتعطى ، وتتفاعل فتنمو وتنتج ، فيدفعها الإنتاج إلى ألوان جديدة وعدتها فى ذلك ثروة طيبة من تقدير الجمال ، ونصيب موفور من القدرة على كشف نواحى النفس الإنسانية ، ولعلها أيضاً تلك القوة الخارقة على تناول شتى المواضيع كما يبدو فى مسرحياته الكثيرة ، فقد كتب المآسى المفجعة والمسرحيات الضاحكة والأخرى الهادئة التى تبعث على التفكير الهادىء الرزين ، بل إن هذه النواحى ليتناوب ظهورها لا بين

مسرحية وأخرى ، بل فى المسرحية الواحدة ، فما كان شكسبير من الذين يتقيدون بتقاليد المسرحية القديمة ولم تكن تحد من تحليقه وحدة الزمن أو المكان ، بل كان ينطلق فى تصويره المسرحى حراً من جميع القيود آخذاً من منابع الحياة بما فيها من صفو وكدر ، فى المسرحية الواحدة عناصر الحزن وعناصر البهجة ، ودموع المفجوعين ، وقهقهة الضاحكين ، أليست هذه هى الحياة : تبسم وتعبس ، وتقبل وتدبر ، وتسر وتحزن ، وأن نقاد شكسبير ليشقيهم هذا الضرب من الانطلاق فى غير حدود ولا قيود ، فهم لا يستطيعون أن يضعوا صفة عامة تستطيع أن تصف الشاعر وما أحسبهم بعد الجهد والمشقة إلا واجدين فيه شعراء فى شاعر وجماعة فى واحد .

على أن شكسبير كان إلى جانب هذا ذا قدرة هائلة على الخلق والإبداع كأنما أودع فيه سر الحياة ، فهو يخلع الحياة على الشخصية الجامدة من شخصيات التاريخ فتفيض بها طبيعية خالصة لا تبصر فيها أثر التكلف أو عجز الصانع مما ضمن لها الخلود .

ولم يبعث شكسبير الحياة فى هذه الشخصيات التاريخية فحسب ، بل هو وهبها لغيرها من الشخوص مهما كان مبعثها ، من قصص

إلى خرافة ، وأن الخلود الذى أصابته شخصياته التاريخية قد نال نصيباً منه ، شخصيات هى من نسج الخيال فى أزمان ممعنة فى القدم وما يعجزنا فى شىء أن نضع شخصية بك Puck و إيريل Ariel إلى جانب الكثير من شخصياته التاريخية . . .

على أن معاصريه من الكتاب لم تكن تعوزهم القدرة على الخلق فقد استطاعوا أن يبعثوا إلى الحياة الكثير ، ولكن الفارق بينه وبينهم هو أن شخصياته تتحرك بالحياة طبيعية متقنة ، فى حين أن شخصياتهم تبدو غير متناسقة كأنها الهيولات قد أفلت قيادها من يد الصانع فبدت سخيفة منكرة ، والفرق أيضاً فى كمال الصنعة وتفاوت القدرة على ربط الأجزاء وإحسان النسبه بين أبعادها

ولم يكن حظ شكسبير من هذه القدرة كحظ معاصريه يبدو فى خاطرات متناثرة ، تجود بها الطبيعة حيناً وتبخل أحياناً بل كان مدداً لا ينقطع ، تلمسه فى كل ناحية من نواحى الشخصية الواحدة ، بل تلمسه لو أردت الاستقصاء فى سلسلة طويلة من الشخصيات

والناظر إلى التواريخ التى صدرت فيها مسرحيات شكسبير يلمس فى خفاء أن الفترة الأولى كما أشرنا كانت وقفاً على إنتاج مستزيد من الكوميديات ذات الطابع المرح ، ولعلها كانت إرضاء

لروح العصر المرحة والناس تتفتح أعينهم على عالم جديد فياض بالمدهش والمعجب ولعلها كانت أيضاً صدى لما يتجاوب فى نفس الشاعر من آمال مزدهرة ، وهو ينعم بشباب متوافر ، ونجاح مضطرد ، وصداقة معينة مساعدة فهو هنا شاعر فتى يصور وينتج لجيل فتى ، والحياة من حوله وحولهم لاعبة مبهجة وليس فى الصدر حرج ولا عليه من آثار الحزن والاكتئاب سحابات فلم لا تنطلق الضحكات مدوية مجلجلة ، وهذه الحياة تنساب يسيرة رضية ... هذه صورة الشاعر فى تلك الفترة وهذا عصره ، وإذا كانت الحياة هى الربيع ، والعمر شباب ، فأية عاطفة تراها تشيع من تلك المسرحيات ، وأية عاطفة يهيم بها الشباب إلا الحب فى جميع صوره وشكوله من الهيام الخالص يأخذ على النفس مسالكها كما يبدو فى « كما تحبها » وغيرها من الكوميديا إلى حالة تلبس النفس وتلج بها فى غريب الأطوار ، وكلف يوغل بها فى مسارب تلك العاطفة الشهية لا تكاد تدرك له غاية إلا أنه الحب وكفى حق الشباب على الحياة وحقها عليه . . .

وإنك لتلمس هذا الطابع حتى فيما كتبه الشاعر من تراجيديا فى تلك الفترة فالمأساة مأساة الحب فى «روميو وجوليت» وليس

هذا غريباً فما أسرع ما ينتقل الحب فى سن الشباب النضرة من تلذذ بالحياة إلى تلف يودى بالنفس ، وبطلا هذه المسرحية من هذا الطراز من المحبين ، عصفت بهما الأحقاد العائلية والثأر الموروث ، حتى إذا ذهبت دماؤهما فداء استلت السخائم من النفوس وطهرت من البغض وزال ما بين أسرتيهما من عداء .

على أنك مطالع فى هذه المسرحية جانباً آخراً من عاطفة الحب ، وما يدفع إليه المحبين من غرام يعمى العين عن النقائص ويستهين بالتقاليد ، ويتخطى العقبات ويطوح بالفتى المتوله إلى حصن أعدائه لينظر نظرة إلى الحبيبة لعل منها بعض شفاء نفسه ، وما يكابد من صبابة ، ويشتفى بالحديث إلى مالكة لبه وهى فى مكانها من الشرفة ، والكلام همس خفيض ، والنجوى شارحة ما فى القلوب من لواعج الشوق ، منظر هو كأس من الحب مروق خالص من الشوائب ما أحراه أن يكون غراما صافياً كحب الملائكة ، وهذا النوع من الحب حالة تصادف الكثرة من الشباب وهم بعد فى زهرة العمر

هذا هو اللون السائد فى مسرحيات هذه الفترة حتى إذا عالج الشاعر فى الفترة الثانية كتابة التراجيديا العميقة القوية جلب لها

عدتها من الأقدار التى لا ترحم ، وقوى الشر التى تبعث بالنفس الطيبة إلى أسوأ الموارد وشهوة النفس إلى القوة والسلطان والطموح المهلك كما فى ماكبث وكيد الأيام وعقوق الولد ، وغدر الصديق كما تراه فى مسرحية الملك لير ، وانقسام النفس بين نداء الواجب وما تبتغيه من راحة ودفع هذا الواجب إلى ركوب الأخطار كما فى كوريولانوس .

أما اللون الغالب على مسرحيات الفترة الثالثة والأخيرة فهو الهدوء والاستسلام ، لا عن عجز أو وهن ، بل عن اقتناع وتسليم فالحياة وما فيها ، وما تبذل فى سبيلها لا تعدو كلها أن تكون سخرية لا يؤبه لها ، لا أن يسفك من أجلها دم ، أو يراق دمع ، وما أجدرنا أن نضحك منها ، أو نطرق إطراقة المفكر . . .

القصـائد

إن نفس الشاعر حين تتهيأ للظهور، وتتفتح للإنتاج، لا تجد إلا الشعر أداة للتعبير عن حاجاتها وأحاسيسها لأنه أكثر تمشياً مع طبيعتهـا المزدهرة وأيسر حملا للتعبير الشخصى عما يخالجهـا من أهواء، وما يتجاوب فى قراراتها من مشاعر.

وإن لشكسبير نصيباً موفوراً من هذا النوع من الكتابة، وإن كنا قد أجلنا الكلام عنه إلى هذا المكان فلأن شكسبير لم يسترسل فيه ولم يقتصر عليه، ولم ينبه به اسمه أو يخلد ذكره، ولأن الثروة الزاخرة من التمثيليات التى خلفها قد غطت على كل مجد له سواه، واقترنت باسمه فى كتب الأدب. على أن فى هذه القصائد فيضاً خالصاً من أصـدق الشعر وأروعه، وأجمل التصوير وأبدعه مما هو خليق بالشاعرية المتمكنة فى إبانها وأول إنتاجها.

أولى هذه القصائد فينوس وأدونيس وهى من طراز مألوف فى ذلك العصر من حيث الموضوع، ومن حيث النظم لا تعدو أن تكون اقتباسا لذلك النوع من القصيد الذى جرى على أقلام

الشعراء الإيطاليين والفرنسيين من استعارة موضوع من مواضيع الميثولجيا اليونانية كأنما الحب والحياة فى الشعر لا يستقيمان إلا إذا أبعد بينهما وبين الحياة الواقعة وحلق بهما فى وديان أتيكا وعلى قمة أولمب ، والقصيدة تتألف من مائة وتسعين مقطوعة فى ست أبيات تجرى على نسق مضطرد فى الوزن والقافية .

ومما يجدر ذكره أن شكسبير وصف قصيدته هذه عند إهدائها للأيرل أوف ساوثهامبتون بأنها باكورة شعره ، ولعل فى هذا خير ما يقال عنها فهى شعر الشباب ، والشباب كما قلنا معنى يتقصى أخبار تلك العاطفة الواضحة المبهمة ، عاطفة الحب ، على أن الحب الذى يطالعنا فى ثنايا فينوس وأدونيس على خلاف ما ألف المحبون فليس الفتى هو المدله ، وليست الفتاة هى المتدللة ، بل إن الآية تنعكس ، ففينوس تلح فى حبها ، وأدونيس يصم عنها أذنيه ولا يرى فى حديثها المستفيض من الحب إلا هراء لا يستحق الترديد ولا يستأهل الاستماع اليه .

هو فتى لم يصل بعد إلى العمر الذى تتفتح فيه حواسه لاستقبال هذا الزائر الحبيب ، هو معنى بالصيد والكر والفر ، مولع برياضة الخيل وطراد الوحش ، لم يستكمل بعد نموه العاطفى ، وإن كان قد

استكمل النمو الجثمانى ، واجتمعت له أسباب الفتنة والحسن ، فما هو من حديث الحب ، وما هو ممن يستهوى لبه أحاديث المحبين ، ولعله يصف الحقيقة أبلغ وصف حين يرد على فينوس يحاول أن يفسر ما أغلق عليها فهمه شارحا لماذا لا يستجيب قلبه إلى دعائها « ألا ترين الصياد لا يمسك إلا كبار السمك ويغض عن صغارها وأن الثمرة الناضجة أسرع تساقطاً ، وأدنى قطوفا ، وأنها أشهى مذاقا من تلك التى لم تنضج . »

ولكن فينوس تمضى فى استغوائه تدفعها الرغبة المتأججة وهى تنظر ملاحة الفتى وما قسم الله له من جمال طبيعى خلاب فتمسك يديه تعركهما ، وتطبع على شفتيه القبلة بعد القبلة ، تود لو كانت دينا ملزم الوفاء مؤجل الحساب حتى تتضاعف أرباحه أضعافا مضاعفة .

والفتى يحاول التملص من تلك اليد التى تؤلمه ولا تبعث فى نفسه إلا الضيق والازدراء ، ويسعى إلى الخلاص من عناق هو نفسه أشق من أغلال الحديد ، لا يحفل أن تكون الذراعان بضتين جميلتين ، أو أن تكون القبلة فياحة بالعطر ، نفاحة بحرارة الشباب

ولهيب الرغبة ، إنه لا يريد شيئا منها ، إنه يريد الانطلاق إلى صيده ولقاء أصحابه .

وفينوس لا ينال منها هذا الصد ، ولا يثنيها هذا الجفاء فهى تحاول تارة بالاستحذاء ، وأخرى بالاستغواء ، وثالثة بالاستنكار والإثارة أن تحرك جامد القلب أو تحيي ميت العاطفة ، ولكنها لا تلاقى إلا صداً مؤكداً ، ونفوراً لا يدنيه ماتسوقه من حديث عن آله الحرب ذلك الجبار الذى خضع لحبها ولذّها أن تجعل منه أداة طيعة مسخرة . . .

وتأبى الأقدار إلا أن تسوق حادثا فذاً ، فجواد أدونيس وكان قد ربطه إلى جذع شجرة ما يكاد يبصر فرسا حتى تتحرك فى نفسه عوامل الرغبة فيخلع عن رأسه الزمام وعن ساقيه القيد ويمضى جامحا فى أثرها يقضى حق الإحساس الطبيعى ويمضى أدونيس فى أثره مستوقفا ولكن الجواد لا يأبه لسيده وينطلق وراء صاحبته إلى جوف الغابة

ويعود أدونيس وقد أعجزه الجواد عن لحاقه إلى موقفه مع فينوس وقد التهب وجهه حمرة من أثر الطراد فلا يزيده ذلك إلا جمالا وهو ينحى باللائمة على فينوس التى شغلته حتى أفلت منه الجواد فما عاد

يستطيع له طلباً وهى تسوق الحادث مثلا رائعاً لما يجب عليه من من حقوق لنفسه ونحو حسنه هذا الفتان ، وأن الجواد كان أقضى منه لحقوق الطبيعة وأحسن استماعا منه الى نداء القلب، وان الحياة هى الحب ومن قصر فيه فهو كنود يقتل فى نفسه خير ما ورثته الطبيعة من قدرة على الاستمتاع ونهوض الى تقدير الجمال والنعمى به.

وتريده على أن يلقاها فى الغداة ولكنه لايستطيع الاستجابة اليها فهو ذاهب الى الصيد مع صحبه من الرفاق فاذا عرفت منه انه ذاهب إلى صيد الخنزير البرى وهو من أشق أنواع الصيد وأحفلها بالخطر أوجست نفسها خيفة منه وأشفقت أن يصيبه مكروه فتحاول أن تثنى عزمه مصورة له فى مهارة ماقد يصيبه من خطر إذا ما انثنى عليه ذلك الوحش الهائج مهاجما وماذا يكون من أمرها لو مسه الضر وتحاول أن تصرفه عن هذا الصيد المحفوف بالاخطار الى آخر آمن وادعى إلى السلامة كصيد الأرنب أو الغزال أو الثعلب فهو طراد لايخشى شره ولا يخاف خطره ، وتكاد الصورة التى تتمثل فى خيالها ،وحبيبها

هذا صريع قد بقرت بطنه أنياب الوحش، تقضى على مابقى عندها من قوة فاذا هى تستلقى على الأرض شاحبة الوجه متلاحقة الأفكار وأدونيس وهو على ما هو عليه من براءة وجهل بما قد تصطنعه النساء من حيلة يخاف أن يكون قد أصابها شر فينحنى عليها يحاول أن يعيد اليها الحياة ، يطرق وجهها بيديه فما تكاد تحسه حتى تجذبه اليها فى عناق لايفلته ثم تدنى رأسه الجميل الى فمها وتصب فى أذنيه حديثا حلوا عن الحب والأحباب ؛ ولكن أدونيس وان لصق جسمه بها كان أبعد منالا من أن يتقبل حديثها هذا أو يستوعبه وان كانت هى تذيب فى كل كلمة منه نفسها وروحها وقلبها . . .

ويميل ميزان النهار وقد انقلبت الشمس من ضحى إلى أصيل حتى استقرت فى مكانها بالغروب ويتاح لأدونيس الخلاص بعد أن يكون قد انسلخ من الليل معظمه .

ولا تستطيع فينوس أن تخلص من لواعج نفسها بعد أن خلاها حبيبها الى صيده فتمضى تلاحقه البقية الباقية من الليل حتى اذا أصبح الصباح طرق سمعها نباح الكلاب وأصوات الصيادين فيرتجف قلبها رعبا وتجرى لاهثة بين الأشجار تعلق غصونها

بشعرها وتمزق ثيابها وهى لا تكاد تشعر لذلك كله ألماً ، فقد شغلها حبها عن ذلك وملأ صدرها الخوف مما قد يصيبه فى هذا الطراد الوحشى، ولكن الخوف لا يسعف الفكر بالرأى الصائب والمضطرب لا يقطع أرضاً ، فهى تقبل وتدبر ، وتصعد وتهبط ، وكأنها لم تغادر مكانها وتقع عيناها على الخنزير وقد هاجته الكلاب فاحمرت عيناه كأنهما شواظ نار ، وجلل الزبد فاه ، فانقلب من الهرب إلى الهجوم ، وانثنى يثخن الكلاب جراحا، فهى بين عاوية تتألم ، ونابحة تلعق جروحها .

وترى فينوس فى هذا فألا يبعث الرعب فى قلبها وتتصور الموت ماثلا فى المكان عادياً على حبيبها فتصب عليه اللعنة وتستمطر عليه غضب الآلهة وانتقامها لما جره من سوء على أدونيس .

ولكنها تنصت فيخيل إليها أنها تستطيع أن تسمع صوت أدونيس وهو يحث الكلاب على الملاحقة فيهدأ روعها وتعود تستميح الموت عذراً على ما رمته به من تهم باطلة .

على أن هذا لم يكن إلا من خيال القلب الواجف وتصورات الفؤاد الملهوف ، فما خيل إليها لم يكن إلا خداع النفس الوامقة

وهى تمضى فى عدوها لا تلوى على شىء فإذا هى ترى أدونيس وقد قتله الخنزير شر قتلة فكأنما غاض النور من عينيها فلا ترى أو غارت الحياة من منابعها فمات كل من فى الكون من الناس والحيون .

ثم تعود إلى شىء من الإدراك المرير فتبكى حبيبها فى عبارات تتقطع لها نياط القلوب ، وترتمى على الأرض تلمس الدم المراق ويخيل اليها أن الخنزير لم يقتله وإنما ضمه إلى صدره ليروى ما فى نفسه من شوق إليه ؛ وهل يستطيع كائن من كان إلا أن يعشق هذا الحسن .

والأرض التى استودعت ذلك الحسن الفتان تضم الجسد الممزق إليها فى حنان ورفق وشوق ، وتغيبه فى جوفها ضناً به على الناس ، فإذا مكانه زهرة حمراء من دمه ، بيضاء كلون وجهه الجميل . . .

وتقطف فينوس الزهرة وتضمها إلى صدرها لا تفارقها لحظة ترعاها أنفاسها الحامية ، وترويها دموعها الندية ، ثم تنطلق إلى مكان قصى تعتزل فيه الناس وتخلو إلى زهرتها الحبيبة ، وتعيش على ذكر الحبيب المفقود . . . .

هذه هى القصيدة وهى كما ترى ، تصوير جميل لعاطفة جميلة ، فى

شعر من أجمل ما جادت به قرائح الشعراء ، زاخر بالأوصاف الحسان والمعانى الرائقة ، وما أجدر الحب أن تنحدر به ينابيع الشعر خالصة ، وتنقاد له بحور القريض دانية ، وهو أصفى العواطف الإنسانية تكويناً ، وأرقها نسيجاً ، وإن كان له فى النفس دفعة البحر الهائج ، ~~وهدير الموج القاصف~~ ..

أما ثانية القصيدتين فهى « اغتصاب لوكريس » Rape of Lucrece وهى كسابقتها تستمد أصولها من معين الآداب القديمة وتتخذ صورها من دنيا التاريخ القديم ، نعم أنها لا تجعل أبطالها من آلهة أولمب والإهاته ، ولكنها تتخيرهم من بين أبطال الرومانيين القدماء وهم قوم بهم من العظمة ما يدنيهم الى مراتب الآلهة ...

والقصيدة من حيث الموضوع تدور على الحب وإن كان يختلف فى لونه عما عرفناه فى فينوس وادونيس فهو هنا عاطفة متأججة تستعر بالرغبة فى صدر الرجل وتدفعه الى حيث لايرضى عقله أو مااصطلح الناس عليه من أسس الخلق وقواعد الشرف والكرامة

ولك أن تتصور مكانا بعيدا عن روما وقد قام فيه معسكر

للجند على قدم الاستعداد لحرب من تلك الحروب التى كانت تشنها روما على جاراتها فى شبه الجزيرة الايطالية.

ولك أن تتصور القواد وعلى رأسهم تاركوين قد جلسوا الى حديث متنوع النواحى بعد أن فرغوا من تناول العشاء والحديث ينتقل بهم من موضوع الى موضوع حتى يتناول حديث زوجاتهم وما يكابدون من حرارة الشوق اليهن ، ثم يتحدث كل منهم عن زوجه حديثا فيه الاطراء وفيه الاعجاب وفيه الاشادة بفضائلها والتنويه بطهرها وحفاظها ، ويجرى الحديث على هذه الوتيرة كأن ليس بين الزوجات من استخفها النزق الى تفريط أو مروق وأغراها البعد عن الزوج بالترفيه مع العشيق ، ثم يجمعون أمرهم على خاطر غريب هو أن يخفوا جميعا إلى روما ليروا بأعينهم ماعليه زوجاتهم من حال وليشهدوا صدق ماذهبوا اليه أو كذبه وتنال الفكرة قبولا فهم على جناح الطائر الى مخادع الزوجات ، فاذا كلهن إلا واحدة فى شغل عن أزواجهن بالفتيان الحسان : تلك هى امرأة كولاتين لم تسلك ما سلكه الأخريات من التمتع بحياة الترف فى روما ولا عجب فهى امرأة نبيلة تزوجها رجل من

من أنبل سادة روما ، لقد كانت تقيم النهار والليل على ذكر زوجها مخلصة له متفانية فى سبيله

على أن هذه الصورة الكاملة عن العفاف والطهر لم تكد لتحد مما يضطرم فى نفس تاركوين من حب طاغ ورغبة أثيمة ، فهو لايكاد يمضى مع الآخرين الى المعسكر حتى يعود بعد أن أسدل الليل مرة أخرى الى بيت كولاتين يتظاهر أن سببا قويا قد دعاه الى العودة الى روما ، وأنه قد دهمه الليل ونال منه التعب يلتمس الراحة والعزاء فى بيت صديقه .

وتنهض لوكريس فتقوم باكرام الضيف العظيم ، وتجلس اليه مؤنسة بالحديث وتستمع اليه وهو لايفصح عن الرغبة الكامنة ولا الغرض المستور ، ثم هى تستأذنه فى الانصراف الى مخدعها بعد أن تطمئن الى أن أسباب الراحة متوفرة له .

ولكن تاركوين لم يكن بالذى ينام ، ولم يكن النوم هو الذى جاء به فما تكاد تنغلق الأبواب حتى تضطرم فى نفسه ثورة جامحة ، وحتى يتملكه جنون الرغبة المستعرة ، فهو ينهض الى ثيابه يرتديها ، والى سيفه يتحمله ، والى زناده يقدحه ، ويستوحى الثورة والإقدام من ناره المستعرة ، ويقسم ليجعلن صور لوكريس

تشتعل بالنار كما استطار الشرر من ذلك الحجر الأصم .

ويمضى فى ممرات البيت وطرقاته ، يدفع الأبواب الموصدة فتنفتح كما لو كان بها لحشية من عذابه وخوف من سطوته ، وإن كان الصرير الذى تحدثه يبعث فى قلبه موجات متتابعة من التردد ولكنه سرعان ما ينضى هذا التردد عن نفسه ويبعث من صدره الملتهب أنفاساً حامية لا تستطيع ريح الليل البارد أن تطفئها أو تنال من حدة لهيبها .

وتتفتح الأبواب واحداً بعد واحد حتى يلج المخدع الطهور فاذا لوكريس نائمة فى وداعة الأبرار ، تتصاعد أنفاسها هادئة منتظمة ، ويفتح تاركوين عينيه على المنظر الخلاب ، يكاد يلتهم الجمال النائم التهاما وليس فيه إلا ما اشتهته نفسه والتهبت من أجله رغبته ، هو ينظر اليها نظرة الأسد الى الفريسة قد استلقت عند قدميه بعد طول الطراد ، هذه الشفاة الجميلة ، وهذا الجبين المنير ؛ وهذا الجسم الممشوق كلها بين يديه ، وكأنما حدت هذه النظرات النهمة من جماح الرغبة فهو سكران ينظر ولا ينهض إلى شىء مما منى النفس به ، ولكنها سكرة قصيرة تنتهى الى ثورة عاتية يغلى بها دمه فيوقظ لوكريس إيقاظاً رفيقاً ، وهى تفتح عينيها فى بطء

أول الأمر ، لا تكاد تدرك مما حواليها شيئا على أن تاركوين يعاجلها بالسبب الذى حدا به إلى هذه الزيارة المباغتة ولعله كان صريحا الى أبعد حدود الصراحة فما كان المقام مقام إشارة أو تلميح

وتحاول لوكريس أن تصده عن غرضه وتذكره بما يجب عليه من حق الوفاء لصديقه وما عليه من واجبات الرجل النبيل ، وتستصرخ فى نفسه المحتدمة عوامل الشرف ، وتنادى سلطان العقل تستعديه على الثورة الآثمة ، ولكن الرجل كان قد أعماه الغرض فهو لا يستجيب الى دعائها بالشفقة والرحمة ، بل هو يأخذ عليها سبيل الاستزادة من هذه الأسباب فيقول لها إن نفسه قد قام فيها كل هذا الحديث وأنه قد حاج نفسه ودافعها فلم يفلح فهى له أرادت أم لم ترد ، وليس عليها من جناح إن هى أطاعته وإن هى أبت فهو قاض غرضه وانه لقاتلها بعد ذلك ، ثم يقتل أحد عبيد الدار ويضعه على فراشها ، ثم يذهب يقول انه وجدها مع العبد فثارت فى نفسه الغيرة وقتل الخائنة وقتل معها العبد الذى دنست معه مخدع الزوج .

وهو يضعها بين الأمرين : إما النزول على ما أراد ، وإما الافتضاح ، يبقى مدى الأيام حديثاً تلوكه الألسن ويتنادر به

المحدثون ، ويصور لها ما يصيب زوجها من عار وأهلها من شقاء .

وتعود لوكريس الى الاسترحام وتريق الدمع عساه ينال ما تصل اليه الحجج والأدلة على أن الدموع لم تكن لتحيي ضميره الميت فهو فى شغل عن هذا كله بل هو لا يسمع له ، لا يهمه أن يكون ملكا دنس صفات الملك ، أو صديقا خان عهد الصداقة ، ما دام قد أشبع رغبته وروى نفسه الصادية ، وأراح حاجات القلب المهتاج .

ولا تجد لوكريس دفعا للداهية فتستسلم للقضاء وتخضع للبلاء يحل بها فى جوف الليل الذى هجع فيه كل شيء إلا ملائكة الشر وما تسخر من الناس .

وتبكى لوكريس وتحاول أن تباعد بين نفسها وبين الصباح حتى لا تشرق الشمس على شرفها المسلوب ، ولكن الصباح يصبح والشمس تطلع فترسل لوكريس فى طلب زوجها فاذا قدم ورآها متشحة بالسواد استوضحها الأمر وما تكاد تلقى عليه الخبر حتى يثور له ثورة الرجل الشريف أصيب فى شرفه ، ويثور معه نبلاء روما وسادتها كأنما حلت المصيبه بهم جميعا وتشتعل نيران الثورة

فتحرق أول ما تحرق أسرة تاركوين وتقصيهم عن الملك .

والقصيدة تقع فى مائتين وخمس وستين مقطوعة من سبعة أبيات وهى كما ترى صورة للون جديد من تلك العاطفة الغريبة فليس هو نداء قلب لقلب ، ولا استجابة النفس الى النفس ، ولكنه الحب فى أعنف صوره وأغلظها وأقربها الى مراتب الغريزة الدنيا ، تنطلق فى غير عقل ، ولا تقف حتى تصل الى تحقيق الغاية وإن تردى فى سبيلها الشرف وأهدرت الكرامة .

والموازنة بين هذه القصيدة وفينوس وأدونيس تدلنا على أن ثمت تقدما ملحوظا لا فى الوصف الشعرى فإن فى فينوس وأدونيس تصويراً أدق وأبدع ، ولكن فى تملك ناصية النظم والسيطرة على الأداة سيطرة القادر المتمكن ...

المقطوعات الغنائية

وهذه مجموعة من القصائد القصار يبلغ عدد المعروف منها مائة وأربعة وخمسين ، وقد كانت دائماً موضع الكثير من التفسير ومبعثاً لطائفة كبيرة من القصص استعان بها النقاد على أن يستبينوا النواحى الخافية من حياة الشاعر العظيم فأولوا الإشارات العارضة فيها الى ما جرى فى حياة الشاعر نفسه من غرام فاشل وصداقة مخيبة ، بل ذهب الكثيرون إلى اعتبارها سجلا كاملا لحياة الشاعر ، واعتدل البعض فجعلوها وصفا للعلاقة بين شكسبير وبين الأيرل أوف ساوثهامبتون ولهم عذرهم فى ذلك فان هذه المقطوعات لم تكن إلا سبيلا من المراسلة بين الشاعر وصديقه تناولت أشتاتا من المناسبات وعالجت قدراً كبيراً من المواضيع ، ولعل الذى دفع النقاد الى هذا دفعا هو أن الشعر الغنائى ذاتى صرف يتحمل قبل كل شىء تعبير الشاعر عن نفسه قبل أن يكون عرضا موضوعياً لما يجرى فى نفوس غيره من الناس

على أن الثابت أن هذه المقطوعات وقد أهديت إلى شخص رمز إلى اسمه بالحرفين الأولين من اسم الأيرل أوف ساوثهامبتون

تحمل فى طياتها قصة طريفة وفيها فيض متزايد من العاطفة الرقيقة . وفيها عتاب على ما كان من غدر الصديق واستئثاره بغادة سمراء كانت موضع حب الشاعر ، ولكن الغدر لم يغير فى الصداقة فهو يبذلها خالصة لا شائبة بها ويزجى معها النصح بريئا لا يريد به إلا وجه الخير .

وسواء أصحت هذه القصة وكان بطلاها شكسبير وصديقه الأيرل أوف ساوثهامبتون أم لم تصح فإنها فى حد ذاتها بعيدة عن هذه الملابسات قصة طريفة حسنة التصوير تلذ القارىء ويأخذ بلبه موسيقاها الشعرية الساحرة وما احتوته من صور شعرية رائعة وإدراك لطيف وعاطفة جميلة .

الفصل الرابع

عبقرية الشاعر

بدأ شكسبير الكتابة للمسرح سنة ١٥٩٢ ، وظل نجمه يعلو وصوته يرتفع ، والعبقرية تتفتح بين يديه حتى بلغ القمة وجاوز قدرة البشر فى الإنتاج والإبداع فى فترة لا تكاد تتجاوز العشرين عاما ، نعم أنتج شكسبير فى هذه الفترة من سنة ١٥٩٢ الى سنة ١٦١٢ ستا وثلاثين مسرحية كلها مثل واضح للعبقرية المتفتحة والذهنية الجبارة ، والمتتبع لروايات شكسبير العديدة حسب ترتيبها الزمنى يهوله النمو الفكرى والاطراد العبقرى فى ذهنية هذا الشاعر ، فالقارىء لشكسبير إذا عنى بالترتيب الزمنى يلاحظ ولا شك النمو التدريجى لملكاته العقلية ، ولخياله الفسيح ، ولتعبيره الواضح ، فهو أشبه شيء بجنى سليمان الذى كان محبوسا فما أن فك

أساره حتى انطلق من محبسه كالريح الراعد فملأ الجو ، وخيم على السماء والأرض ، فهو مارد لا يقاوم . وإن يكن شكسبير قد بدأ الكتابة فى سن الثامنة والعشرين وهى سن متقدمة إذا قيست بسن النابغين من أمثال كيتس (Keats) وشللى (Shelley) فكتاباته الأولى لا يبدو فيها أثر للعبقرية فالقصيدتان اللتان تعتبران أول نتاجه العقلى وهما : فيتس وأدونس ، واغتصاب لوكريس (Venus & Adonis, Rape of Lucrece) لا ميزة لهما على غيرهما من الشعر فى العهد الإليزابيثى ولكنهما يظهران ناحيتين من قوى الفنان فهما ينطويان على غناء فى الناحية العاطفية الشهوانية التى لا يمكن كما قال « جيته » أن يستغنى عنها فن من الفنون ، والناحية الأخرى هى ناحية القوة التصويرية — فالقصيدتان مليئتان بالصور التى التقطتها حواس الشاعر سواء فى ذلك الصور المرئية أو الصور الحسية ، ونعنى بالحسية التى وصلت إلى ذهن الكاتب عن طريق الحواس الأخرى وهى اللمس والسمع والشم فى بعض الاحيان إذ أن شكسبير مرهف الحس فى كل ناحية من نواحيه تكاد تحس الحركة فى تعبيراته وتتسامع الصوت فى تخيلاته هذا إلى أنه رجل عامر القلب بالألوان يلون كل صورة بلونها

الطبيعى ويوشى حواشيها بكل ما يجلب لها الحياة والحركة، وإنك لتحس ذلك فى وضوح وقوة إذا ما قرأت وصفة للأرنب فى قصيدة فينيس وأدونس، وأهم ما يتميز به شكسبير فى مراحله الأولى حب خالص للفظ الجميل، وأناقة متصلة فى التعبير الرائع فهو مغرم باختيار الألفاظ، مفتون بالتعابير الجذابة والعبارات الخلابة فهو يبذل جهداً فى أن تكون عباراته منمقة رشيقة ذات رنين وجرس يستهوى الأسماع ويملك القلوب، وهذا لا شك لايتوفر للكاتب أو الشاعر إلا إذا بلغ درجة من الكمال فى المعرفة باللغة وفنونها وأساليبها.

والبحث فى طريقة شكسبير فى التعبير يجرنا إلى نقطتين هامتين متفق عليهما بين أهل النقد الأدبى: —

فالكتابة اما أن تعتمد فى قوتها على الفكرة وحدها تاركة لقوة الفكرة أن تشغل ذهن القارىء وأن تسمو به فتغض طرفه عن البحث فى قوالب الفكرة أيا تكون، وأما أن تعتمد على اللفظ الرنان والمحسنات البديعية والصياغة اللفظية بحيث تخلب نظر القارىء أو السامع فتلهيه بجمال هيكلها وخلابة مظهرها عن البحث فيما ورائها من معان سامية وأما أن تجعل من هذه القوالب الشفافه

الرقيقة أوعية لعصارة الفكر المسكرة التى تستهوى العقل وتسترعى النظر بقوة أفكارها وجمال لفظها ، وهذه مرتبة الخالدين لا يصل إليها الكاتب أو الشاعر إلا إذا صفت نفسه ورق حسه ، ونستطيع فى غير تحفظ أن ننسب كتابات شكسبير الأولى إلى الطريقة الثانية فهو فى سن الثلاثين أحب اللفظ للفظ وعنى بالكلمات لما فيها من موسيقى أو رنين ، كان يبحث وينقب عن اللفظ فيأخذه أيان يجده ، وكانت له فى ذلك حساسية مرهفة وأذن واعية ، ومن حسن الحظ أن الزمان إذا جاد بالعبقرى هيأ له عصراً تتفتح فيه الحياة فى شتى المناحى وتتعدد فيه التجارب حتى لينشأ لكل تجربة لفظ جديد ، ولكل حركة معنى مستطرف لم يسبق للإنسان استعماله ولا طرأ على باله استغلاله ، فهى ألفاظ بكر ، لها جدتها ولها طلاوتها ولها قوتها ، ولذلك فإن الفنان حينما يستعملها لأول مرة تكون لها حيوية وقوة لاتعدلها حيوية ، وعصر شكسبير كما صورناه كان عصراً مليئاً بالمستحدثات عامراً بالمدهشات ، فى كل ناحية من نواحيه فيض من تجارب وفيض من تعابير ، كانت الأرض أمامه خصبة مثمرة لا تحتاج إلا إلى العمل والتفكير

العبقرى ليخلق من هـذا الشتات المتنـاثر أثراً خالداً يحيا على الزمان .

كانت اللغة على عهده مليئة بالاصطلاحات القانونية والدينية ، وكان لأهل المدائن حـديث وفكاهات ، ولأصحاب الحوانيت والفنادق وأهل الحرف حوار طريف يتبادلون فيه النكتة الرائقة والفكاهة المستملحة ، وكان لهم قصص خلاب ونوادر وحكايات يتناقلونها عن البحارة والقرصان ويضيفون إليها من خيالهم الخصيب ما يستهوى لب السامع ويخلب حسه ، وكان إلى جانب ذلك لأهل القرى حديث موسوم إن امتلأ حيناً بالخشونة فهو لا يخلو من جمال شعرى ورقة فياضة أضفتها عليهم حياتهم الريفية المليئة بالصور الخلابة من نهر وشجر وزهر وطير ، وكانت لهم غدوات فى البكور ، وروحات فى العشى ، وسجعات مع الأطيار ، وطراد مع الغزلان ، وحب مع الربيع ، وأسماء يكتبون بها الأزاهير ويسمون بها الورود والغـدران — كانت لهم كلمات وكانت لهم صور وحكايات وكانت لهم أحاج وألغاز وكانت لهم نوادر وأمثال يتناقلونها ويتمثلون بها ، وكانت لهم أشعار يتغنون بها ترجع إلى أجيال وأجيال فهى أشعار الجماعات وحكم الزمان

وأمثال الأيام — من هذا كله ألف شكسبير قصصه وشعره ومسرحياته ، فإن يكن العصر عامراً بالألفاظ المحلية فقد جلب له تفتح العالم وراء البحار ، وخروج الناس للكشف والجرى وراء المغانم والأسلاب ألفاظاً متعددة وعبارات متجددة ، جاءته من الشرق ومن جزائر الهند الغربية والمكسيك ومن أمريكا الجنوبية ومن إيطاليا اللاتينية ، ويا ليت الأمر اقتصر على هذا الفيض الداخلى والخارجى بل إن محبى الألفاظ والغائصين على دررها حفزهم حب التجديد على النحت واستحداث الألفاظ والتراكيب فكانوا ينحتون لكل معنى جديد لفظا جديداً ويخلقون لكل صورة مستحدثة لفظا مستحدثا ، وعلى الجملة فقد كان عصر شكسبير عصر تجديد فى اللغة — كان شكسبير قطب الرحى فيه فقد جمع من كل بستان زهرة ومن كل غدير قطرة ، جمع ما سمع فى القرى وما أحاط به فى المدن وأضاف إليه ما استفاده من قراءاته وما أخذه عن شوسر (Chaucer) والمؤلفين القدماء ، ومن التراجم المتعددة لآثار الإغريق والرومان — وعى صاحبنا كل ذلك وأعمل فكره فى النحت والتجديد حتى ليقال إنه أضاف إلى اللغة الانجليزية من الكلمات والعبارات أكثر مما أضافه الكتاب

والشعراء الإنجليز مجتمعين ، ولم يكن شكسبير فى تجديده متطرفا ولا ملتويا ، بل كان يؤثر اللفظ الحبيب على اللفظ الغريب وبذلك استطاع أن يؤلف من هذا الشتات المتنافر من الألفاظ جنة وارفة الظلال استمتع بجمالها وحسن تنسيقها الناطقون بالإنجليزية على مر الأيام . ولم يقتصر ما قدمه شكسبير إلى اللغة الانجليزية على الألفاظ بل إنه لحسن الحظ قد أضاف إليها معينا لا ينضب من الصور الخلابة والتعابير الرائعة تربو على ماقدمه أى كاتب أو شاعر فى أى لغة من اللغات وأن شكسبير بهذا ليعد من مبدعى اللغة الانجليزية الأفذاذ . بل إليه وحده يرجع الفضل فى ذيوع صوتها وانتشارها فى آفاق الأرض فقد كانت اللغة الانجليزية حتى أواخر القرن السابع عشر غير معروفة أو مقروءة فى خارج أرض الوطن إلى أن ذاع ذكر شكسبير وملأت عبقريته الأسماع فذاعت معه اللغة ، وأضحت فى مدى قرنين من الزمان لغة عالمية يتحدث بها الناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، بل أضحت من مقومات الحضارة الإنسانية ووسائل التقريب بين الناس أجمعين ، على أن هذه اللغة التى تدين لشكسبير بوجودها وحيويتها والتى بفضلها أضحى ساحر العالم الأول لم يسلس له قيادها ولم تواته ألفاظها

طيعة سهلة إلا بعد جهد ومشقة ، وأنك لا تكاد تشعر فى رواياته الأولى بطواعية الألفاظ له وانقيادها لمعانيه بل إن ألفاظه وعباراته فى أولى مؤلفاته لا تكاد تخرج عن مألوف أعمال المؤلفين والكتاب من الشبان على عهده ولكن مع مرور الأيام نلاحظ فى مؤلفاته قوة سحرية تتسلط على الألفاظ فتخضعها لسلطانه وتلينها لإرادته حتى تضحى خاضعة له يصرفها حيث يشاء ويضعها حيث يريد ، يتلاعب بها ما شاءت له قوته فيفتن فى إخراجها ويأتى بالمعجز المبدع الذى يسحر العقول ويسبى الأفئدة وإن كثيراً من سلطان شكسبير على النفوس ليرجع إلى هذه الملكة ملكة التسلط على اللفظ ، فقد تشاهد مشهداً جميلا من روايات شكسبير فتأخذك روعة إخراجه وروعة تمثيله ولكنك لا تلبث أن تسمتع إلى عبارة رنانة من عبارات شكسبير الخالدة فيأخذك سحر لفظها ويسمو بك عن دقة التمثيل وجمال الإخراج ويرتفع بك إلى عالم علوى تنسى فيه كل شىء إلا حلاوة هذه الموسيقى التى تتدفق فى رفق وحنان فى أذنيك الواعيتين وأن هذا السحر اللفظى المعجز ليحمل بعض الناس على السرف فى الخيال فيزعمون أن شكسبير لم يؤلف رواياته إلا ليهىء لالفاظه الساحرة ومعانيه

العاطرة سبيلا للانطلاق إلى أسماع الناس لتسكرهم بحلو رنينها وجمال تنغيمها ... لقد استطاع شكسبير بهذه القوة السحرية الفذة أن يجعل من شخوصه شعراء خالدين ... ألم ينطق عطيل Othello ذلك العسكرى الاسود بالشعر الحلال ... ألم ينطق ماكبث Macbeth ذلك السفاح الآثم بالآيات الخالدة ، لقد أنطق شكسبير من لايحس ولا ينطق بالشعر المأثور حتى أياجو lago ذلك النمام الدساس كانت له كلمات يقطر منها رحيق خلاب — لقد واتت شكسبير الالفاظ ودانت له العبارات وأصبح شعره ينساب فى رقة كالجدول المترقرق فيضفى جمالا وفتنة على كل ما يلمسه من صور أو يخرجه من معان

ولعل أول مابدت هذه القوة الشعرية كانت فى روايته «سيدان من فيرونا» فقد ظهر ذلك بوضوح فى أغنيته المشهورة من هى «سيلفيا» على أن هذا لا يعنى أن رواياته التاريخية التى سبقت «سيدان من فيرونا» كانت خلواً من سمات العبقرية فهى وإن تكن فى معظمها غير متميزة الاسلوب ولا واضحة النسبة إلى شكسبير فإن بعض جوانبها الخطابية تنبىء عن يد الفنان وتكشف عن هذه الملكة الساحرة الغلابة ملكة السيطرة على اللغة التى تبدت فى عنفوانها

ونضوجها الكامل فيما تلا « سيدان من فيرونا » من مسرحيات وأشعار . وشعر شكسبير يتميز بالسلاسة والسهولة المعجزة وهو إلى إعجازه ينفرد بخاصية تسمو به عن كل شعر آخر ألا وهى انفراده بالتصوير الخيالى المبدع وإخراج أفكاره ومعانيه فى قوالب شفافة كلها جمال وجلال ... إن وراء كل كلمة عند شكسبير صورة أخاذة ووراء كل عبارة استعارة فتانة هى سر العظمة ومفتاح العبقرية ... إن قوة شكسبير الخارقة تجعل استعاراته وتشبيهاته تتدفق متدافعة كالسيل ، فأفكاره تتنقل من استعارة إلى استعارة ومن صورة الى صورة ... وهو لا يحتاج الى جهد فى نحت هذه الاستعارات أو صياغة تلك التشبيهات فهو يغترفها من من معين الطبيعة الذى لا ينضب ومن مشاهداته التى لا تحد هو يقتطعها من الاشجار ويغترفها من الانهار ويقتطفها من الازهار ويستلهمها من السموات والارض ، ويستمطرها من السحب ويحيكها من كل شىء عظم أو هان ، هو يصور من البيت ومن الحقل ومن الغابة ، ومن الجوارح ومن الغزلان ، ومن الاسود ومن الضباع ، ومن حركات الإنسان وسكناته ، بل من كل شىء ، انه يرسم ويصور ويمثل بما لا عهد لمخلوق به — انه يعجز

البشر ويسمو بصوره عن النقل إنه يصور بالاذن ويصور بالشم ويغرم إلى حد بعيد بتصوير الحركات وتنميق الاصوات تسمع فى دنياه دق الطبول ، وزمر الابواق ، وزئير الاسود ، ونباح الكلاب ، وحفيف الاشجار ، وحوافر الخيول ، ومد الانهار ، وجزر البحار ... لقد كانت هذا الصور وتلك البدائع عند شكسبير فى أول أمرها محسنات لفظية الغرض منها الزينة والتجميل ولكنها لم تلبث أن تحولت إلى محسنات معنوية تشترك فى خلق الشخصية التى يريدها ، بل وتضفى على وجودها حيوية فياضة . . .

إنه الشرق والشمس جولييت

فاشرقى أيتها الشمس الجميلة واقتلى هذا القمر الحقود

الذى هده السقام وأذواه الحزن

هذه كلمات روميو عند ما رأى محبوبته جولييت تطل على البستان من نافذتها فى احدى روايات شكسبير الاولى «روميو وجولييت» ، وهى لا شك عبارات مليئة بالصور المزينة — على حين أننا اذا قرأنا القطعة المشهورة فى ماكبث :

غداً وغدا . . . . وغدا

يزحف فى خطوات وئيدة من يوم يوم

حتى المقطع الاخير من زمنه المكتوب
ان أيام أمسنا الدابرة تضيء الطريق
للإغرار الى لحد الفناء
انطفيء ... انطفيء أيتها الشمعة الذابلة
فما العمر إلا خيال زائل وما الحى
إلا ممثل ضعيف يخطو على المسرح
ثم ينطوى فكأن لا شيء
إن الحياة قصة يرويها أبله مليئة بالأصوات
والصخب الذى لا معنى له

نرى أن صور شكسبير التى تملأ هذه القطعة تتفاوت بين السمع والبصر والحس والحركة ونرى أنها لم تعد محسنات يقصد بها إلى الزينة فحسب ، بل أضحت جزءاً من الفكرة وضوءاً يكشف عن معنى مخبوء وراء خلابة اللفظ وجماله — لقد أضحى شخوص شكسبير يعبرون عن أفكارهم بالصور ، وأضحى للصور مكانها فى أدب شكسبير يتميز به وتعطيه طابعاً خاصاً ندر أن نجده عند غيره بهذه القوة وهذا الارتباط الوثيق بين الصورة والمعنى وبين الاستعارة اللفظية والفكرة .. لقد صارت كل كلمة

من كلماته تنبىء عن صورة يرتسم خيالها فى الذهن وتترابط الصور وتبدو لعين القارىء فى سرعة البرق الخاطف — وشكسبير إلى قدرته العظيمة فى خلق الصور المعبرة سهل اللفظ سلس التعبير لا يحشم قارئه جهداً ولا مشقة بل يجذبه جذباً بحلاوة لفظه التى لا تجارى وانسياب فكره الذى لا يبارى .

لم يقف جهد شاعرنا عند حد النحت اللفظى والخلق التصويرى الذى يتتابع فى يسر وينساب فى موسيقى حلوة تتفتح لها القلوب وتنجذب لها الآذان ، بل بلغ بالتصوير الغاية ، وجعل الاستعارة والمجاز والتشبيه آلات فى يده يتلاعب بها كيف شاء ويضفى عن طريقها الالوان التى تروقه ، ويرسم الظلال التى تعينه على تهيئة الجو الذى يريده لقصته والذى يحب أن يتنفس فيه أشخاصه وأن يتكلموا على ضوئه — إن استعمال المجاز والتشبيه قد بلغ درجة من القوة والدقة فى يد شكسبير الماهرة استطاع بها أن ينسج لكل رواية من رواياته ركازاً من اللون والتصوير يوضح موضوعها ويناسب جوها ، ونحن إن تأملنا رواية ماكبث مثلا نشعر أن جو القصة المخيف أنما هيئته فى أذهاننا وأعدتنا لاستقباله عديد الصور التى طغت على كلمات شخوصه وأنطقتهم بما يخلق الجو

الذى يتنفسون فيه ، ويرجع السر فى قوة ما كبث وتأثيرها إلى تلك الصور المظلمة التى كانت تتابع تتابعا يقطعه فى بعض الأحيان لمحات من الضوء اللامع وإلى ذلك اللون القانى لون الدم الذى امتلأت به صورها وفاض بتأثيره حوارها — الدم .... الدم ... الدم ... لقد كان هذا هو النغمة الخفية التى تنساب فى كل ناحية من نواحى القصة ... فما كبث يرى قطرات الدم تنسال على الخنجر الخيالى الذى لازمه شبحه قبل مقتل دنكان — ويرى الدم يلطخ يديه بعد ذلك بدرجة خيل اليها معها أن ماء المحيط بأكمله لن يزيل أثره من يديه ولكن هذا الدم المتدفق سيحيل زرقة ماء المحيط الى حمرة قانية — وليدى ما كبث تلازمها الصور الدموية وتلطخ يدها حتى يخيل اليها أن كل طيب بلاد العرب لن يزيل من يدها رائحة هذا الدم المسفوح — إن كل أشخاص الرواية يتحدثون عن الدم ونسيج الرواية سداه ولحمته الدم ، فهذه الصور المتلاحقة قد زادت الفاجعة أثراً ، وليس هذا الركاز محساً فى ما كبث وحدها بل فى كل مآسيه إذ فى كل مأساة نجد صورة تسود كل الرواية وتسيطر على حوادثها وتهيأ الجو الذى يتنفس فيه أبطالها، فروميو وجولييت مثلا تسودها صور الضوء اللامع الذى

يلمح كالبرق الخاطف ثم لا يلبث أن يختفى. ففيها ضوء الشموع وضوء المشاعل واندلاع اللهب، وانفجار البارود، ولمح البرق ولمعان النجوم من هذه الأنوار التى تلمح ثم تختفى اتخذ شكسبير قصة هذين العاشقين روميو وجولييت اللذين ما كاد الحب يتفتح لهما، وما كادت الحياة تبسم لهما حتى طغت عوامل البغض والحسد وصروف الحدثان، ففرقت بين الحبيبين، وباعدت بين الأليفين، وقضت على العاشقين قبل أن يستمتعا برحيق الحب ويتذوقا معسول الحياة فمات كل منهما قبل أن يرى صاحبه وذهب ضحية الوفاء أو على حد تعبير جولييت «لا لا هذا حب مفاجىء جاء كالبرق الخاطف» أو على حد تعبير الكاهن «إنهما كالنار والبارود إذا تعانقا انتهيا».

والصورة السائدة فى هملت هى صورة المرض والداء، صورة قرحة خفية تقلب المزاج وتثير الأعصاب، على حين أن الصورة التى تسود أنطونى وكليوبترا هى السعة والعظمة إذ فيها يبدو العالم الواسع والقوى القاهرة، والشمس الباهرة، والقمر الساحر، والنجوم الزاخرة، والسماء الصافية

ويستطيع المتأمل أن يجد هذا الركاز الذى يهيء به شكسبير

جو رواياته واضحاً فى الملهاة كما هو فى المأساة وإن يكن فى الملهاة يعتمد على الموسيقى اللفظية التى تنساب فى سطور حواره فتجعله مقبولا محبباً .

وموسيقى شكسبير ، موسيقى علوية يستمدها من السماء ويستوحيها من الطير فلا يخطىء وقعها ولا ينبو رنينها ولا يثقل على الآذان نغمها فلشعره بهذا قوة سحرية تمتاز بالصور والنغم واللفظ والمعنى الرفيع

أنظر إلى هذه الصورة فى رواية « تاجر البندقية » « إن القمر يسطع وقد حنى النسيم العليل على أعالى الأشجار فى قبلة هامسة ، فى هذه الليلة وقفت ديدو على شاطىء البحر العجاج تدعو حبيبها للعودة إلى أحضان قرطاجنة ملوحة بصفصافة فى يدها . »

بلغ شكسبير بشعره القمة التى لا يتطاول إليها شاعر مهما سما فهو شاعر الجمال للجمال ، وشاعر السحر والخلود ، كتب كثيرون الشعر قبله ، وكتب كثيرون الشعر بعده ، ولكن ما من واحد فى الغابرين أو فى اللاحقين قد بلغ مبلغه أو فرى فريه . صحيح أن التاريخ يحمل لنا فى صفحاته أسماء شعراء خالدين من أمثال أرسطفان وايسكلس من عباقرة الإغريق ، ودانتى وملتون وشلى

وبيرون وغيرهم ، ولكنهم جميعا إن سموا فى ناحية وطاولوا شكسبير فى جزئية من جزئياته فهم لم يجمعوا ما جمع ولم يخلقوا ماخلق ولم ينبغوا كما نبغ . لقد كان شكسبير نسيجاً وحده تحدت عبقريته الزمان وقطعت الطريق على كل مفتن وملهم فإن يكن شغف الناس به قد وصل إلى حد أن قال فيه أحدهم «أن الآلهة فى عليائها تسمى كوكب الأرض باسمه لما نالها من فخاره ولكثرة ما تردد اسمه على كل لسان فيهـــا » فلا عجب فى ذلك فقد فتح شكسبير بكتاباته للفن آفاقا جديدة ، وللموسيقى عوالم مستحدثة ، وأحدث ثورة فى عالم المسرح والتأليف قلبت أوضاع أرسطو ووحدات الفرنسيين الثلاث ، وفتحت عهداً جديداً فى حرية التأليف من غير قيد ولا شرط وبدأت مدرسة كثر المعجبون بها وطار صوتها من انجلترا إلى ألمانيا ومنها تلقفتها أقلام النقاد وألسنة الكتاب فأحدثت عجباً وبدأت فى الفن والتأليف سيرة جديدة — وشكسبير بهذا لا يعد شاعراً فحسب ، ولا مؤلفاً مسرحيا فحسب ، ولا مصوراً فحسب ، ولا موسيقيا فحسب ، بل إلى ذلك كله مجدداً ثائراً ، وبانياً من أول المعمرين الذين وضعوا الأسس الأولى لتلك اللغة الإنجليزية الحديثة التى تتناقلها الألسن فى قارات العالم

الخمس والتى أصبحت بفضل ذيوع شهرة شكسبير لغة العالم الاولى .

بدأ شكسبير كتاباته بروايات للمسرح اعتمد فيها كل الاعتماد على مخلفات الشعراء والكتاب الذين سبقوه والتى كانت ولا تزال تراثاً خلفه الزمن للأجيال تنهل منه وتأخذ عنه فهى ملك مشاع بين الناس لايعرف لها صاحب ولا تنسب الى شخص بعينه — وحين بدأ شكسبير عمله المسرحى كانت لندن تعج بالكتاب والشعراء من أمثال كيد Kid ومارلو وجرين وجونسون وتشابمان ووكر وويستر وهيوود وميدلتون وبيل وفورد وماسينجر وبومونت وفلتشر ، وهذا وحده أكبر دليل على تعلق الناس فى هذا الزمان بالمسرح وغرامهم به — إذن دخل شكسبير إلى دنيا الكتابة والجو مهيء فالرغبة عند الناس متحققة والتطلع والشغف موجودان ، وهذان عنصران من العناصر التى تجنب الكاتب كثيراً من العثار الذى يصاحب التجارب الاولى فى حياته بل وتخط له طريق النجاح — هذا الحظ الموفور الذى هيأ لشكسبير الظهور فى عصر شغوف بالمسرح متتبع لآثاره متطلع لاعماله قد وضع فى يد شكسبير مدداً لا ينفد من الروايات والاقاصيص التاريخية

عكف عليها شكسبير دراسة وقراءة وأخرج منها فى أيامه الاولى مجموعة أضفى عليها من روحه وحسه وزاد فيها بعض مقطوعات من تأليفه وإنتاجه وإن يكن من العسير فى هذه الروايات الاولى التمييز بين ما هو مستعار وما هو مبتدع فقد كانت قوى شكسبير الخالقة وعبقريته الطاغية لما تكمل أسبابها ولما تأخذ نصيبها من الظهور — هذه الروايات التى وجد شكسبير مخطوطاتها فى مسارح لندن كانت خليطا من قصص تروى Troy ومن مصرع يوليوس قيصر Julius Ceasar ومن مخلفات المؤرخ بلوتارخ Plutarch وتراثا كاملا لتاريخ انجلترا من أيام آرثر وبروت Arthur & Brut حتى أيام هنرى — وبعضا من المآسى والقصص الايطالى المرح وطرفا من أخبار الرحلات الاسبانية — هذا التراث تعاقبت عليه أيدى العباقرة والكتاب واستغل غير مرة واتخذ منه كثيرون قبل شكسبير مادة لفنهم وموضوعات لمسرحيات استمعت اليها الجماهير ووعت موضوعاتها ولكن اذا كانت المادة واحدة فليس الصقل واحداً ولا الاخراج متشابها بل يختلف كل الاختلاف حسب طبيعة الكاتب أو الشاعر كل يرى من زاويته الخاصة وكل يعرض من الناحية التى تهز مشاعره فى القصة مثلهم فى ذلك مثل المثالين

تتحد مادة فنهم ولكن اثارهم مع ذلك تتعدد وتختلف وتعلو وتهبط أو تسمو إلى حد الاعجاز وفق اليد المشكلة ووفق الروح المسيطرة ليس الحجر هو كل شيء وانما الفنان هو كل شيء، إن العين لتقع على آلاف التماثيل كل يوم ولكن لا شيء منها يستهوى النظر أو يستحق الدرس عل حين أن تمثال Venus آلهة الجمال لا يمل الانسان من طول النظر اليه وكلما أمعن النظر فيه كلما تفتحت له جوانب خفية من دقة الصنعة وجمال التصوير فاذا كان شكسبير قد لقف بعصاه السحرية كل ماتركته الأجيال من تراث وشكله حسب هواه واخرجه وفق مشيئته وزاد عليه من قلبه نورا ومن حسه شعرا وشعورا فقد وفر ذلك للشاعر العظيم وقتا يصرفه فى السمو بخياله والتحليق فى دنيا الفن الى آفاق مجهولة لم يصل اليها عقل الانسان. لقد أتاح له هذا اليسر فى الحصول على مواد قصصه فرصة التفرغ للصنعة يضفى عليها من قواه الخارقة روحا تسمو بها إلى أعلى عليين — لقد وجد شكسبير موضوعات شعبية حبيبة إلى نفوس مواطنيه لا يملون السماع اليها يوما بعد يوم بل يسرفون فى طلب المزيد فشمر عن ساعد الجد والقى بنفسه فى هذا الخضم فاستطاعت عينه البصيرة أن تخرج أصدافا تبهر العيون ثم لم يلبث أن اتقن الغوص

فاخرج للناس لآلىء بهرتهم وملكت عليهم عقولهم ومهما يكن من شىء فان استخدام شكسبير لهذه المواد التى وجدها بين يديه لايقلل من عبقريته ولا يطعن فى قدرته على الخلق والابداع — فليست العبقرية كما نفهمها خلق شىء من لاشىء أو ابداع على غير مثال وانما العبقرية فى الاحاطة بكل شىء والتأمل العميق والغوص على الاسرار التى تخفى على عيون العامة وغير الموهوبين من البشر والحساسية المرهفة لكل مايدور أو يجول وترك العالم يسير طريقه ويؤدى واجبه . وليس بدعا أن يأخذ شكسبير عمن سبقه ولا أن يستغل تجارب السابقين فما من عبقرى ممن نعرف أو لانعرف فى أى فرع أو منحى من مناحى الحياة إلا وقد أفاد من دورة الحياة التى سبقته ونهل من تجارب الأيام التى تقدمته ثم اوسع كل ذلك دراسة وزاد عليه ماوضحه أو أضاف اليه مادفعه قدما نحو غايات بعيدة — وهكذا كان شكسبير يأخذ ممن سبقوه ويستعير ممن عاصروه ثم يشكل بروحه وقلبه من هذه العصارة صوراً لاعهد للناس بها ، صوراً رائعة أخاذة تفتن الناس وتحيرهم فى إدراك مكنونها . . . ان قوة شكسبير وقدرته على الاحاطة لتبدو فى أروع مظاهرها إذا نحن تتبعنا نموها السريع فى كتاباته

مرتبة ترتيبا زمنيا حسب وقت ظهورها فان نحن وجدنا فى «هنرى السادس» الشاعر ينقل آلاف السطور من غيره نقلا كاملا ثم لا يكتب هو نفسه إلا مئات السطور ليدل على جهده فاننا لا نلبث أن نراه فى فورة نشاطه وقوة انتاجه فى «هملت» وفى «عطيل» وفى «لير» وفى «ماكبث» فما من فكرة إلا له وما من صورة إلا من ابداعه ، انه يكتب آلاف السطور فى قوة دافعة فياضة لا تقف عند حد ، انه يسمو ويرتفع ويخلد ويملك زمام أمره ويتحكم فى قوى الطبيعة ماظهر منها وما بطن

ولعل من حسن حظ شكسبير ان ظهر فى عصر أكثرية الناس فيه أميون لا يقرأون ولا يكتبون مما يسر له سبيل النقل من غير تحفظ ومما أعانه على أن يستغل تراث الاجيال الماضية وتجارب المعاصرين دون أن يتعرض لما يتعرض له الناقلون فى هذه الأيام من عنت وأرهاق فالناس تسمع وقل أن تعى والعامة يطربون وندر أن يذكروا وهكذا استطاع شكسبير أن يتجاوز أيامه الأولى فى سلام . .

الفصل الخامس

عبقرية الفنان

الحياة فى مظاهرها المتعددة والحياة فى صورها المتفاوتة والحياة بآلامها وآمالها والحياة بنوازعها ومثلها والحياة بشهواتها وفضائلها هى مادة الفنان وأداة الفن فالطبيعة هى وحدها التى تمنح الفنان موضوعه وتيسر له موادصناعته ولكن عبقرية الفنان هى وحدها التى تستطيع أن تتخير من بين هذه العناصر أصلحها لاداء رسالته والعبقرية وحدها هى التى تؤلف من هذه المواد المتفاوتة المتناثرة وحدة لها مقوماتها ولها جمالها وجلالها ، العبقرية وحدها هى التى تنفخ فى هذه الصور التى خلقتها وشكلتها روحا تجذب بها القلوب وتهبها التأثير والسحر — وتنفحها البقاء والخلود — فان تكن

الطبيعة ميسرة ملء العين والسمع لكل إنسان وإن تكن الحياة تجرى فى أعنتها بمواكبها الحافلة واحداثها القاتلة مارة بالناس جميعا يشهدها الكبير والصغير ويذوق مرها وحلوها الغنى والفقير فان العبقرية ليست فى متناول كل فرد ولاهى مما يسهل الوصول اليه إنما العبقرية نفحة علوية تصيب الناس بقدر فتمنحهم جلاء فى البصيرة وقوة فى البصر ونفاذا إلى بواطن الامور وإحساسا مرهفا وأذنا صاغية وقلبا واعيا ونفسا عالية — العبقرية أى كان لونها نبوة أو شاعرية أو خطابة أوقيادة أوزعامة هى مزاج رفيع من كل هذه الصفات على حدة ولكنها تنطق بلغة العصر الذى تعيش فيه وتبدو فى الصورة التى تدفعها اليها مقومات الحياة التى ولدت فيها وعاشت فى أكنافها — إن كل مقومات العبقرية هى قلب كبير وبصيرة واعية نافذة متعمقة فى الصميم — ومتى اختارت الأقدار رجلها المنشود ووهبته النفاذ والتعمق إلى أعماق الوجود وأطلعته على سر الكون الغامض ذلك الكون الذى يشترك الناس جميعاً فى تأمل مظاهره وإن لم يعوا أو يدركوا ما استقر خلف هذه المظاهر من أسرار هى عصارة الحياة وعنصر الوجود فالعباقرة فى كل زمان ومكان أناس توحى اليهم

الاقدار بأسرار الوجود فينفذون بأبصارهم الثاقبة إلى أعماق الحياة فيجلون لنا ما غمض ويكشفون لنا ما خفى عسى نستطيع أن نفهم الحياة وندركها ونقدرها — إن مهمة العباقرة هى الكشف عن أسرار الكون وعدتهم فى ذلك الايمان والاخلاص العميق، انهم يختارون من الناس ويعيشون وسط الناس ولكن بعيون فاحصة وعقول مدركة وقلوب واعية

لقد عاش شكسبير فى وسط من الحياة المتدفقة المتجددة وطعم من ألوجود الوانه المتفاوتة المتباعدة وكانت عين الأقدار قد وقعت عليه ليكون رسولها المعبر عن وحيها الناطق بآيات الوجود الكاشف عن أسراره فى ذلك الزمان فوهبته عينا نافذة وبصيرة كاشفة وقلبا حافظا — جمع بهم تجاريب وصورا ظلت كامنة فى نفسه حتى اتقدت فيه شعلة العبقرية فخرجت شعراً وشعوراً ألهب مشاعر الناس وملك عليهم أنفاسهم جيلا بعدجيل.

لقد تفتقت ذهنية شكسبير عن شاعرية جبارة وبزت قواه العقلية وبصيرته كل عقل وكل بصيرة سبقته إلى هذا الوجود — ونظرة واحدة إلى آثاره التى طوق بها جيد الزمن تنبينا عن مبلغ كمال هذا الرجل ونضوجه، وإن قوى شكسبير لتبدو فى قدرته على

التصوير وفى ادراكه الفطرى للظروف والملابسات التى تحيط به وفى تكييفه لما بين يديه من وسائل ومواد للعمل وفى حسن ربطه بين هذه جميعها وتنسيقها تنسيقا تاما يلتئم مع قواه واستعداده ، وليست هذه القدرة وليدة النظرة العابرة ولكنها وليدة النظرة المتأملة الفاحصة التى تشع ضوءا يكشف عن خبيئة كل ما حوله بل هى وليدة العقل الراجح المتزن والبصيرة القوية الكاشفة — إن من العسير علينا ان ندرك كيف استطاع شكسبير أن يخرج من هذه المواد التى وقعت عليها عينه هذه الصور الخلابة التى تفيض بالحياة الكاملة إلا إذا سايرنا قوة الخلق عنده من منبتها حتى منتهاها ودرسنا ما وراء كل شخصية من شخصياته من دوافع حملته على اختيارها وعلى تصويرها على هذا الوضع بخصوصه دون أى وضع آخر ودققنا فى كل ظرف وأرجعنا كل علة إلى معلولها وعلى الجملة اننا لن نستطيع هذا على وجه التحديد مالم تكن لنا بصيرة فاحصة وقوة خارقة تنفذ إلى مانفذ اليه وتقدر ماقدره وتدرك ما ادركه وتيك معجزة أخرى من معجزات هذا الفنان فان الناس لتختلف منذ ثلاثة قرون فى تحليل شخصياته وأن الناس لتذهب مذاهب شتى فى الكشف عن سره الذى أودعه هذه الشخصيات

الخالدة التى صورها ونفذ بتصويرها إلى صميم الحياة والواقع — وفى الحق أن شكسبير عظيم لأنه استطاع أن يصور وأن يكشف النفس الانسانية بما تنطوى عليه من نوازع وغرائز فى غير تكلف ولا مداورة . . . فالنفس الانسانية عجينة رخوة فى يده يشكلها كيفما شاء ليبدى بها ماشاء من نقائص وليكشف فيها عما شاء من محاسن وهو فى تصويره وإبداعه فذ لا ينسج على منوال غيره وإنما سباق يرود الوعر ويكشف المخبأ ويترك الناس من ورائه حيارى لا يستطيعون أن يفروا فريه ، فهو إذ ينظر إلى الشىء لا يبدى لك ماظهر من قسماته ولا مابدا من علاماته وإنما ينظر اليه نظرة تكشف عن أعماقه وتصل إلى مكنون قلبه وأن النفس لتتصهر تحت بريق نظراته فإذا هى فى يده سر مباح وعالم مطروق لا خفاء فيه ومن هنا كان تصويره كاملا واخراجه لا مغمز فيه — وليست قوة شكسبير قوة فحص وادراك فحسب بل هى قوة تعبير وافصاح وما حسن التعبير وقوته إلا أثراً من آثار الفهم الصحيح والاحاطة الصادقة والنظرة المتعمقة فنحن لا نستطيع أن نعبر عن الشىء أو نصفه بكلام له وزنه وقدره مالم نكن محيطين بهذا الشىء نافذين إلى أعماقه — وشكسبير له من النفاذ والتعمق مايعينه على الإدراك الكامل والوصف الصحيح بل وما يعينه على

التعبير عما يدرك وعما يحس فى أقوى عبارة وابلغ بيان وموضع العجب فى هذه النفس الخالصة الحساسة ليس فى الاحاطة ولا فى التعبير ولكن فى قدرتها على أمساك كل ماحولها من المشاهد وعكس كل ماحولها من الصور — هى نفس قوية عجيبة تطبع كل ماتشاهد وتلتقط مختلف الصور ومختلف الرجال ، فى أعماقها قافلة متنوعة من الرجال فمن فلستاف إلى عطيل إلى جولييت إلى كوريولانس تخرجهم بين الحين والحين إلى عالم الحياة الخالدة مرة أخرى فى أكمل بزة وأقوى حيوية .

وإن يكن شكسبير قد دانت له مقاليد الكلام وخضعت لسيطرته تعابيره وصوره حتى اضحى سرها فى يده يصرفه كيف شاء ويتلاعب به كيفما شاء ، وإن يكن نمو هذه السيادة الغلابة قد بدا واضحا فى تواليفه وضوحا حير اللب فثمت سيادة أخرى تطالعنا ونحن ننتقل من صفحة إلى صفحة من حياة هذا الرجل الفنان سيادة من نوع جديد لا عهد للناس بها ولا عهد لتاريخ الآداب بمكنونها — سيادة محيرة ، كل تحليل مهما سما لا يمكن أن يكشف عن صدق مدلولها ولكنا نستطيع أن نميزها فى قوة وغلبة كلما تقدمنا فى قراءة شكسبير وانتقلنا من مسرحية إلى أخرى من رواياته الفذة

إن للمسرحية تاريخا قديما سبق وجوده كثيراً من معارفنا فهى ترجع الى عهد الإغريق والرومان وقد شاهدت فى حياتها الطويلة فترات من المجد والعظمة وترى فيها زندها وارتفع صوتها وإن التاريخ مايزال يذكر روائع «إيسكلس» و «ارستوفان» وإن الآداب لتحفظ من قديم روائع خالدة من الفن الإغريق والرومانى وإن المسرح ليدين لهذه الروائع بكثير من الآثار التى بقيت على الأيام نوراً يهدى المؤلفين ويعينهم على السير قدما فى مضمار هذا الفن الخالد

وعصر اليصابات وإن يكن يدين بنهضته المسرحية لروائع الفن الإغريق فان أكثر الفضل فى تقدمه يرجع إلى آثار سنيكا Seneca الرومانى التراجيدية فقد كان الناس على هذا العهد عاكفين على دراسته ومحاكاته ، ولعلنا إن وضحنا المنوال الذى كانت تنسج عليه هذه الاغريقيات والرومانيات من حيث التصوير ومن حيث الشخوص استطعنا أن نعطيك مفتاح السر لهذه السيادة الجديدة التى أحسسناها ونحن نقرأ شكسبير تلك السيادة الغريبة التى طوعت له الحياة وأدانت له النفس الانسانية فاستغلها أبدع استغلال وكشف عن مكنونها وأفصح عن خبيئتها .

لقد كانت شخوص روايات سنيكا شخوصا مسرحية ،

شخوصا يستلزمها المقام وتدعو إليها الحاجة ، شخوصا توضع لتعبر عن أغراض معينة ، وتنطق برسالات خاصة ، قد تختلف بين السخرية والألم ، أو بين الإضحاك والإيلام — شخوصا لا حياة لها فى ذاتها ينفخ فيها الكاتب آراءه ويتحدث بلسانها — هى موجودة على المسرح لأن الكاتب أراد لها الوجود تتحرك وفق مشيئة الكاتب فهى لا أكثر من دمى تقول وتتحرك وأعنتها فى يد الكاتب فإذا ما انقضت المسرحية لم تعد شيئا مذكوراً .

كان هذا هو المنوال الذى نسجت عليه المسرحيات الإغريقية واللاتينية وعنه أخذ الكتاب الانجليز الذين سبقوا وليم شكسبير أو عاصروه — كانت شخوص مسرحياتهم شخوصا مثالية أنموذجية Type Characters تعبر عما يراد لها التعبير عنه من العواطف وتبرز ما يود الكاتب إبرازه من المعانى ، أما هى فى ذاتها فلا وجود لها ، ولا حياة مستقلة عن جو المسرحية أو الرواية على هذا الأساس الكلاسيكى كتب مارلو ، وكتب بن جونسون ، وكتب شكسبير على أول عهده بالكتابة فكانت شخوص وليم شكسبير فى الفترة الأولى من حياته الفنية دمى تتحرك وفق مشيئته متقمصة صفة من الصفات أو قوة من قوى الخير أو الشر التى

تعمل فى توجيه الطبيعة الانسانية ولذلك كان من العسير تحليلها أو الغوص وراء مدلولها فهى لم تكن شيئا حياً يمكن أن يحلل أو يتتبع فى مظاهره المتفاوتة لنصل منه إلى تأليف صورة كاملة له — وإذا كان وليم شكسبير قد راض نفسه فى الأيام الأولى من حياته الفنية على التقليد والمحاكاة فهو حين تفتقت عبقريته وتفتحت مناحى عظمته لم يعد يرتضى لنفسه هذا الثوب الخلق بل نضاه عنه وأقبل يتشح كل يوم بثوب جديد يبهر الأنظار ثوب من نسيج العبقرية الفذة.

× ثار وليم شكسبير على تقاليد كتاب عصره وعلى تقاليد من سبقوه من الإغريق والرومان حين أبرز على المسرح بين الشخوص المثالية الأنموذجية التى عهدها الناس شخصية متواضعة ولكنها فياضة بالحياة تشعرك لأول مرة أنك تسمع صوتاً من صميم الوجود الحى وتشعرك بأن عينك إنما تقع على عين حية مبصرة تبادلك النظرات، وهكذا تنقلب دنيا المسرح الخيالية المثالية فى لحظات إلى عالم الحقيقة ودنيا الواقع.. هذه الشخصيات الحية النابضة التى عنى شكسبير بإبرازها على المسرح لم تكن شخصيات لها أهميتها فى المسرحية أو القصة، وإنما شخصيات ثانوية تظهر

فى منظر أو منظرين من الرواية ولكن مهما يكن من شىء فان هذه الشخصيات على تفاهة أدوارها كانت نواة لثورة شاملة فى طريقة العرض والأداء، وأول ما نلاحظ ظهور هذه الشخصيات الجديدة فى رواية «سيدان من فيرونا» فسبيد Speed ولونس Launce كانا ثمرتين باكرتين لغرس نبتت دعائمه وقويت وأثمرت بعد ذلك مئات الثمرات ويأتى بعد هذين شخصية المربية فى رواية «روميو وجولييت» فهى تقفز إلى المسرح فى حيوية فياضة ممتلأة حياة نشطة متدافعة كالبحر الزاخر.

تلك كانت أولى تجاريب شكسبير فى إدماج الحياة الواقعية فى دنيا المسرح وهى تجربة تلتها تجارب، إذ حياة شكسبير فى المسرح سلسلة متصلة من التجاريب لم تخمد جذوتها إلا حين انتهى وليم من أداء رسالته وعكف على حياة الهدوء على ضفاف نهر الأفون... ونجاح شكسبير ولا ريب فى هذه التجارب الأولى واستجابة الشعب لها وحبه إياها قد حفزه على السير بها قدما حتى بلغ القمة فى «هاملت»، وبعد أن كانت الحياة الواقعة تلمع فى لمحات قصيرة وبعد أن كانت الشخوص الحية شخوصاً ثانوية فاض نور الحياة بدمها ولحمها على المسرح وملأ فراغ الرواية

بأكملها وقويت الشخوص الحية وقفزت من الظل الى الضوء وعلى مر الأيام نحت الشخوص المثالية ونأت بها عن الضوء الى الظل وبعد أن كانت روايات شكسبير الأولى مسرحا تتلاعب فيه الشخصيات المثالية بحيث لا تستطيع التمييز بين شخص وشخص أو بين محب ومحب كما هو الحال فى رواية « حلم منتصف ليلة صيف » وبعد أن كانت شخصيات بوتوم وكوبنس وسنج شخصيات متنحية نرى فى رواية « تاجر البندقية » مثلا وهى رواية متأخرة عن العهد الأول أن الشخوص الهامة أصبحت تحس وتتحرك ويفيض دم الحياة فى شرايينها ، فأنتونيو وشايلوك وبورشيا شخصيات حية تتكلم كما نتكلم وتعبر عن نفسها تعبيراً واقعياً لاشبهة فيه ، وأكثر من ذلك أننا أصبحنا لا ننكر على هذه الشخصيات تصرفاتها بل قبلناها وارتضينا أعمالها وأقوالها لأنها مقتطفة من الحياة الحية النابضة ، وهكذا نفخ شكسبير فى شخوصه روح الحياة حتى بلغ بها المدى الذى لا يجارى فى عصر ازدهاره ، عصر الكمال الخلق والتصوير عنده ، عصر النضوج الكامل عصر التراجيديات الخالدة فأصبحنا لا نرى على المسرح إلا أشخاصا يعيشون بأنفسهم ويتكلمون بضمائرهم ، أما النماذج وأما المثل فقد اختفت وأرخى

عليها ذيل النسيان ، أصبحنا نرى « لير » و « هملت » و « عطيل » و « ماكبث » و « كليوبترا » و « أنطونى » ونحس فى صيحاتهم وفى حركاتهم نبضات الحياة وفورات الدم وتردد الأنفاس .

ان قدرة شكسبير على الخلق والابداع لا تبدو فى فيض الحياة الذى غمر به شخصياته المسرحية ولا فى تعدد هذه الشخصيات الحية ولا فى أهمية الأدوار التى تلعبها على المسرح قدر بروزها فى عمق هذه الشخصيات وتعقد مناحى تفكيرها واتساع أفق نظراتها الى الوجود والى الحياة المتشعبة إن مسرح شكسبير لم يعد يغص بالدمى المتحركة بل أضحى جزءا من الحياة الواقعة برسم احساساتها ويعبر عن نوازعها وغرائزها وينطق بآلامها وآمالها ، نرى فى كل شخص يذرع المسرح حياة كاملة بأسرارها وغيوبها تتفتح تحت أنوار المسرح الكاشفه كما تتفتح الزهرة تحت ضوء الشمس الدافئة

— ان شكسبير العبقرى قد أحدث ثورة فى تقليد الفن الكلاسيكى حين ربط المسرح بالحياة الواقعة ، وحين اتخذ المسرحية سبيلا لتحليل النفس الانسانية تحليلا صادقا كاملا — وهو فى ثورته هذه لم يركن الى وحى الخيال وحده ، بل اقتطع صوره وقصصه من صميم الحياة التى نعيش فيها ومن قلب الحياة التى عاصرته

وسر العبقرية فيه انه حين يعرض الحياة للناس على أيامه يعرضها من زاوية انسانية تشترك فيها العصور مهما تباعدت وتجتمع عندها الانسانية مهما تفاوتت أيامها .

لقد كانت السوداوية والمزاج الحادضربا من ضروب الفلسفة التى سادت حياة الشبان فى أيامه فعرض لها شكسبير فى رواية « كما تحبها » ساخر آحين صور « جاكويز » شابا مكتئبا ينفر من الناس ويهرب من المجتمعات .

روزالند : يقولون انك شاب مكتئب تضيق بالحياة

جاكويز : كذلك ، فانا أحب الاكتئاب ولا أحب المرح

روزالند : ان الإغراق فى المرح والإغراق فى الاكتئاب سيان ، يجلبان على صاحبهما لوم الناس ويعرضانه لألوان من السخرية قد لا يتعرض لها السكير العربيد

جاكويز : ولكن لم ؟ اليس خيراً أن يكتئب الانسان ويعتصم بالصمت من شرور الناس .

روزالند : ومافضله على الجماد اذن

وهكذا نرى لمحات من حياة الناس على عهد شكسبير تبدو فى ثنايا مسرحياته فتشعرنا أن الرجل كان يعيش ويحس وأنه كان

لعصره قبل أن يكون لسائر العصور ، هو حى محس مدرك لما حوله ، ولكنه يتميز عن الناس بأن إدراكه إدراك إنسانى يتناول العلل من جانبها العام، ويلمس الأدواء من نواحيها المشتركة ، وهذا سر خلوده ومفتاح عبقريته .

وشكسبير الذى سخر من جاكويز السوداوى المكتئب ، عاد فرأى فى هذا الاكتئاب منفذا من الضيق، ومفرا من الشدة وملجأ من عنت الأيام وصروف الزمان ، فهو يرتضى هذه الحياة لهملت ويبلغ فى تصويرها وتصويره كمالا لاعهد للادب به من قبل هذا الجبار المتعمق فى حنايا الصدور النافذ إلى أعماق القلوب

خلق شكسبير شخصيات متعددة حفل بهم المسرح، وحفلت بهم الحياة ولكنه فى خلقه وابتداعه كان جبارا قادراً استطاع أن يميز بين مبتكرات عبقريته ، وأن يطبع كل شخصية من شخصياته بطابع خاص يميزها عن غيرها، بل زاد على ذلك انه استطاع أن ينفخ فى بعض شخصياته روح العبقرية، فالى جانب الرجال العاديين الذين يحيون كما نحيا ، ويتنفسون كما نتنفس، أظهر فلاسفة وعباقرة، فشخصية فلستاف هذه الشخصية المرحة شخصية عبقرية نافذة إلى أعماق المعرفة كاشفة عن اسرار الوجود وكذلك شخصية هاملت

وشخصية كليوباتره — ولشكسبير الى كل هذا ميزة مفردة هى قدرته على تصوير ازدهار الانسانية وسموها الى درجات الكمال واندحارها وانهيارها إلى درجات الحضيض .. هو يساير الانسانية إلى كمالها ، ثم لا يلبث أن يكشف عن العوامل الخفية التى لاتفتأ تعمل لتقويض دعائمها وتحطيمها ، ويصور هذه العوامل تصويراً بارعا لايدع مجالا للريب فى قوة فعلها — ويرينا هذه العوامل وهى تعمل فى نفس العظيم وكيف تسخر من عظمته وتتركه حطاماً بالياً نهباً للوساوس والأوهام ، تمر عيشه ، وتملك عليه أمره ، فيخر صريعا تحت ضرباتها القاسية لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا — هذا هو عطيل بطل مغوار ، وقائد محنك ، ترى فيه ديدمونة جمال الروح ، وقوة العقل فتعشقه على سواده وتفضله على اترابه ، تغترب معه لتوفر له سعادة كاملة ، وتعينه على مرارة الغربة وقساوة الحروب ، هذا المدره النافذ البصيرة قد سلط عليه شكسبير عاملا من تلك العوامل الخفية التى تهد كيان البشر وتطوح بهم إلى أغوار سحيقة ، يسلط عليه الغيرة يوقد نارها ويشعل أوراها فى قلبه « اياجو » الدساس بمعسول الكلم حينا ، وبالاشارات التى تفيض رقه حيناً آخر ، ولكنها لاتخلو من الهمز واللمز — هذا المارد الجبار ذو العقل الراجح قدهدته الغيرة ، وأعمت بصره وبصيرته ، فتأججت اتون

الغضب فى صدره ، واشتعلت نار الحقد بين جوانحه، فقتل حبيبته، من ضحت بهناءتها من أجله ، ومن اغتربت من ديارها فى سبيله - فلما أتى فعلته ، وتبين إفك صاحبه ، انهار كيانه ، وانهدت أركانه ، وتحطم بنيانه ، وأصبح لاشىء بعد أن كان كل شىء . . لقد صرعت الغيرة هذا الجبار، ويالها من سلاح نافذ الطعنة .

أياجو — « حذار يا مولاى من الغيرة فهى ذلك الوحش الضارى ذو العيون الخضراء الذى يسخر من فريسته ويثير فيها كل يوم ضروبا من الشك ويلهو بشجوها المتزايد » .

لقد صور شكسبير مصرع البطولة فى «ماكبث» وكشف لنا عن خبيئة هذه النفس ،وكيف تطورت إلى نفس دموية بعد مقتل «دنكان» . إنه الطمع ، وانه الجشع ، غلب على هذه النفس الانسانية الهادئة ، فقلب أوضاعها، وصم أذانها، وأحال قلبها صخراً لايلين، فقتلت ضيفها بعدأن سكن اليها وأرتاح إلى صحبتها، وأسلم اليهازمام أمره — غدر وخيانة ماكانت لتصدر عن نفس هادئة مفكرة ، ولكنها عوامل الطمع والأثرة غالبة غلابة ، قاتلة قتالة ، دفعت «بماكبث» إلى الجريمة،وهيأت له وسائلها وحاطته بالمغريات وحفزته بالدوافع ، ولم تدع له سبيلا لتدبر ولا طريقا لتراجع . . . الملك

الملك . . التاج التاج . . انها الفرصة الذهبية إن أفلتت أفلت الزمام إلى الأبد، وقد أفلت زمام الرجل من يده فأتى أمراً نكراً مدفوعا بعوامل الشر مسيرا بقوى الباطل — لقد كشف لنا شكسبير هذا الجحيم الذى كانت تتدافع فيه نفس « ماكبث » بين الإحجام والإقدام حتى اندفعت فاحترقت .

و« لير » صورة اخرى من البطولة المنهارة ، حطمتها عوامل الكبرياء والصلف وطغى عليها الاعتزاز والغرور حتى تبدد شملها وضاع ملكها، فثارت على نفسها ثورة هدامة، انتهت بها إلى الجنون ثم شملتها هدأة منقذة ، فقرت نفسها فى إستسلام وخضوع .

لقد كشف شكسبير فى مقدرة عن هذه النوازع الخفية التى تحبك شباكها يد الأقدار، لتوقع فى حبالها الابطال المغاوير فإذا هم فرائس تصطرع وتضطرب، ثم لاتلبث أن تنهار ويشهد الناس مصرعهم الأخير فى سكون ووجوم

هذه ناحية من عظمة شكسبير، وثمت أخرى أشد وأقوى تلك هى ميزة لشخصياته التى يبدعها ، ينفرد بها عن الذين لفوا لفه ، وحذوا حذوه، فشخصيات شكسبير شخصيات غامضة، لانستطيع أن نكشف عن أهدافها، أو أن نحدد أغراضها، هى تتصرف كما

يتصرف الناس فى الحياة الواقعة، تتصرف بلا حد، وتعمل بلا توجيه، فكما أن الانسان فى حياته العامة، وتصرفاته لا يمكن أن يخضع لنظام معين، أو يهدف نحو غاية محددة، كذلك شخصيات شكسبير تعجب وتغرب، وتتصرف تصرفات تدهش السامع والرائى، وتخلف ما يظن، وتأتى على غير ما يتوقع، فهى شخصيات غامضة لا يمكن بسطها أو تحليلها أو التنبؤ عما يمكن أن تقول أو تفعل. وشكسبير فى هذا نسيج وحده، فإن كل من نعرف من المؤلفين المسرحيين أو القصصيين يرسمون لنا فى كلمات صورة إن لم تكن كاملة فهى موضحة معبرة عن شخصيات قصصهم ورواياتهم، نستطيع بها أن نعرف خطواتهم التالية، وأن ندرك أحاديثهم، وأن تنبئنا عن مصائرهم وأعمالهم، لقد خلق شكسبير لنا شخصيات فذة: «كهملت» و«فلستاف» و«كليوبترا» شخصيات لو أنها عاشت معنا طول العمر لأدهشتنا، وحيرتنا وأدخلت على نفوسنا السرور، ولطالعتنا كل يوم بجديد ولفتحت أمامنا مجالا لا ينتهى للبحث والجدل فى كنهها ومرماها — ولعل عجزنا عن سبر غور هذه الشخصيات، وعن كشف ما غمض منها وما انطوت عليه أحشاؤها من مكنون الصفات مما يزيد إيماننا فى حيويتها وانسانيتها ولعل أعجب هذه المخلوقات التى وهبها لنا

شكسبير تلك الشخصية الغامضة المحيرة التى ظلت، وستظل لغزا لايحل، شخصية «هاملت» فهى شخصية معقدة لما تفهم بعد على حقيقتها، ويخيل لنا أن هملت نفسه لم يصل إلى فهم ماتنطوى عليه احشاؤه، وهو بهذا التعقيد المحير أشد حيوية، وأقوى إنسانية من أى انسان حى عاش أو سيعيش على ظهر البسيطة - ولو أن شكسبير قضى حين كتب «هملت» لقلنا أنه وصل فى سن السابعة والثلاثين إلى قمة الشاعرية، وأوج العظمة الدراماتيكية التى لايمكن لانسان مهما أوتى من نبوغ أن يصل إلى مستواها، ولكن شكسبير صانع المعجزات، قد جاوز هذا الحد وأربى على هذه الغاية، حين خلق شخصيات عطيل ولير ومكبث وكوريولانس، فتلك شخصيات عظمى رفيعة المستوى، ونظرة واحدة من هذا الارتفاع الشاهق الذى سما اليه فن شكسبير بمسرحياته الأخيرة إلى خطوات شكسبير الأولى ترينا عظم الهوة السحيقة التى بيننا وبين كتاباته الأولى، وتوقفنا على المدى الشاسع الذى قطعناه فى عشرين سنة، منذ بدا وليم شكسبير فى أفق مسارح لندن حتى انتهى إلى مآسيه العظيمة، انه مدى تتقطع انفاس وانفاس مئات السنين دون أن تستطيع

ادراك نصفه بله غايته .

ولم يكن ابداع شكسبير قاصرا على دنيا الواقع يستمد منها مادة فنه ، ويخلق من وحيها أشخاص مسرحياته ، بل جاوز حد الواقع الى حد الخيال ، واستغل معارف عصره عن الجنيات والمردة وابدع شخصيات خيالية ، نفخ فيها من حيويته ، وتلاعب بها على المسرح ، فكان أول من استخدم الجنيات فى رواياته . وأول من خلق هذه الدنيا الجديدة ، دنيا الجنيات والمردة ، واضفى عليها حيوية قربتها من الشخصيات الحية وانطقها بالسحر الحلال — استخدم شكسبير هذه الأرواح الخفية العلوية ، لترقص وتطرب فى « حلم منتصف ليلة صيف » ولكنه لم يلبث ان سما بها ، وأتى بالمعجز المتمنع ، فخلق شخصيتى أريل Ariel وكاليبان Caliban هاتين الشخصيتين العجيبتين العلويتين اللتين وان كانتا غير بشريتين ، فقد كان لهما سحر وأثر ، ملك اللب ، وكاد يوصلهما الى درجة البشرية .

لقد كان الفن الى ماقبل عهد شكسبير ، قاصرا على محاكاة الطبيعة ، وتقليدها ووصف مافيها ، أو ما يمكن أن يكون فيها ، ولكن شكسبير حينما خلق شخصية كاليبان لم يستوح الطبيعة ، ولم يقلدها ،

وانما استوحى الخيال، وخلق من أشياء خيالية بحتة شخصية حية، تجول وتتحرك، وتتكلم كما يتكلم الناس، وشكسبير بهذا أول من لفت النظر الى أن الفنان لايجب أن يتقيد بالتقليد، بل يجب أن يترك لعبقريته العنان لتخلق شخصيات جديدة وعوالم جديدة تملأها بالحياة والحركة.

لقد استطاع شكسبير فى هذه الفترة القصيرة من حياته الفنية أن يحدث أموراً فى دنيا الفن، وعالم المسرح ظلت موضع إعجاب الفنانين ومصدر حيرة لهم — ونحن مهما أسرفنا فى وصف تجديد شكسبير فلن نصل بحال إلى تعداد واف لكل ما عمل وكل ما أخرج للناس من عجائب . . . لئن كان شكسبير أول من نفخ الحياة فى صور شخصياته، ورسمها لنا وهى تحس وتعمل، بل وهى تقول وتتحرك، فقد كان أول من ميز لنا بين الشخوص المثالية وبين الشخصيات الحية، فالشخوص المثالية تنتهى بانتهاء المسرحية على حين الشخصيات الحية تظل فى ذاكرتنا وفى خيالنا نذكرها كما نذكر أصدقاءنا الاعزاء، ولقد حق لدكتور جونسون Johnson بعد هذا أن يقول « إن شكسبير لم يكن مقلدا وإنما مبتدعا استن سننا جرى على مثالها الكتاب من بعده » وليس فى هذا من عجب فان شكسبير

خلق لفنه دنيا بأسرها، متعددة الاجواء، مختلفة الأشخاص، متلونة المظاهر، تفيض بالحياة الخالصة، وهو فى تنوعه وشموله لكل ما يمكن أن يخطر على البال وجوده بين البشر من الشخصيات، قد بز الحقيقة الواقعة، وأضحت الدنيا العريضة تكاد تكون خاوية بالنسبة الى دنياه العامرة بكل حى مهما تنوع قبيله، واختلفت صفاته.

ان هذه الدنيا من المخلوقات التى أبدعتها يراعة شكسبير وصاغتها عبقريته من معدن الوجود، ونفخ فيها من روحه ما ملأها حياة وحركة لا كبر دليل على ان الرجل قد كشف عن سر الوجود، ووصل الى اعماق المعرفة فدانت له القدرة على الخلق والابداع... وما دامت بصيرته قد تكشف عنها الحجاب، ووهبته القدرة اكسير الحياة يملأ به الجسوم التى تعرض له فيدفع الدم حارا فى شرايينها، والحياة نابضة فى عروقها، فلا غرو ان نجد بين الفينة والفينة، أن شخصية من الشخصيات التى يقرأ عنها شكسبير فى احدى الروايات القديمة قد استهوته، وملكت عليه حسه فخلع عليها من الألوان والاضواء ما جلاها وأظهرها فى ثوب قشيب، وانك لتشعر بنهر الحياة المتدافع فى هذه النفس العلوية ينساب

رويدا رويدا بين صفحات مسرحياته، حتى اذا اكتملت له القوة، اندفع تياره، وطغى بحيويته على كل شيء — لقد بدأ شكسبير يطالع الجمهور بحيويته، من خلال شخصيات ثانوية، يدفعها الى المسرح، فتلمح كالبرق الساري يضيء ظلام الليل، حتى اذا ما اعجب الناس بهذا السنا، وطلبوا منه المزيد، اطال فى مكث شخصياته الحية، وعدد اعمالها، وما زال بها حتى اكتسحت الشخوص المثالية، ونقلتها من الصدر الى الجانب، وانتهى بأن نحاها عن الوجود المسرحي، واسدل عليها ذيل النسيان . . وما دمنا قد المعنا الى هذا التطور فى الباس شخصياته ثوب الحياة القشيب، فمن الحق علينا ان نلاحظ انه جنبا الى جنب هذا التطور، بل ونتيجة له، تطورت موضوعات مسرحيات شكسبير، واضحت مسرحيات اشخاص، تدور حول حياتهم، بعد ان كانت مسرحيات ظروف وملابسات وحوادث، وتحولت الملهاة عنده من ملهاة تقوم على الخلط فى الشخصيات، والتضارب فى معرفتها، مما يحدث ارتباكا يثير الضحك والسخرية، كما هو الحال فى كوميديا الاخطاء Comedy of Errors الى ملهاة تعتمد على خداع النفس، وانقلبت المأساة من مأساة ظروف وملابسات، الى «مأساة» عنصرها الرئيسى، تنازع الشخصيات

وتصادمها واحتكاك القوى الحيوية فى الرجال ، كما هو الحال فى رواية عطيل مثلا فان الصراع بين أياجو الدساس وعطيل الشجاع النبيل، قد انتهى بهما الى الدمار .. وكذلك التصادم بين تريوليس Triolus وكرسيدا، وبين أنطونى وكليوبترا، واحتكاك شخصياتهم هو الذى ادى بنا الى الفاجعة — ولم يعد تصادم الشخصيات وحده هو موضوع المآسى وسبيلها ، بل تصادم البطل بعوامل الوجود ومصاعب الحياة الخارجية ، فروميو، وريتشارد الثانى، وريتشارد الثالث لم يصطرعوا مع احد، ولكن مجاهدتهم للعوامل الخارجية هى التى صرعتهم بل واكثر من هذا، فان المأساة بعد ان تقدم بها الزمن، واضحت موضوعاتها طيعة فى يده انتقلت الى مرحلة جديدة، سرها اصطراع البطل مع نفسه ومحاربتها، مما ينتهى به الى الوبال، فبروتاس Brutus فى رواية « يوليوس قيصر» كان مع نفسه فى حرب مستعرة الاتون، فهو مقسم بين عاطفتين، عاطفة المحبة لقيصر والولاء له، وعاطفة الاخلاص للوطن ، والتضحية بكل شىء فى هذا السبيل ولو جدع أنف قيصر، وطاحت هامته، وظلت هذه العوامل الدفينة فى نفسه، تحترب حتى قضت عليه . و«هاملت» كان محسا غاية الحس، مدركا كل الادراك للقوى المتفاوتة التى تتشاحن فى فؤاده

وتتضارب فى عقله ، حتى خبلته وانتهت به الى الدمار وكذلك «لير» «وماكبث» و«كوريولانس»، مازالوا يجاهدون طبيعتهم، ويحاربون سليقتهم حتى انتهى بهم الأمر إما إلى الجنون، وإما الى الموت .

عالج شكسبير هذه النواحى النفسية بحذق ودراية وأظهرنا على جوانب خافية من النفس الانسانية واتخذ سبيله الى ذلك الحوار حينا بين شخصيتين ، ليرينا كيف تبدأ العقد النفسية وكيف تستنبط مادتها من أتفه الاحاديث، وكيف تتخذ من كلمة عارضة أساسا لحكم خطير ، وما تزال تتغذى على الكلمات تتناثر ، وعلى الحركات والسكنات حتى يتعقد أمامها البسيط، ويشكل عليها الهين، فاذا هى فى طرفة عين قد أظلمت جوانبها واتقدت نيران غضبها، أو غيرتها، أو فضولها، واذا هى تسير يقودها هوى ، أو غريزة ، ويدفعها جنون عاطفة أو عماية بصيرة وكما يرينا شكسبير المشاكل والعقد وهى تنبت، فهو لايغفل عن أن يرينا إياها، وهى تتفاعل فى النفس يرينا عمل العقل الباطن، ويكشف لنا عن سريرة الصدور، وما يحز فيها ، ووليم بهذا سباق كعهده الى وضع الاسس السيكولوجية فى الرواية أو القصة ، وقد أفاد من هذه الدراسات كثيرون من كتاب القصص، فحذوا حذو شكسبير، وساروا

بمقدماته شوطا بعيدا، وأسرفوا فى استعمالها اسرافا، كان من نتيجته أن أضحى أدب القصة بحثا سيكولوجيا غامضا ، وشكسبير يكشف عن هذه المكنونات التى تنطوى عليها الصدور ، بعرضه لأفكار « الشخصية » وهى بمعزل عن الناس، تتأمل فيما دار وتفكر فيما وقع لها .هو أول من ابتدع الأحاديث المنفردة « Sololoquies » فهو يترك شخصيته الحية ، تشطح فى دنياها ، وتفكر فى صوت مرتفع ،وأنت تستمع لهذا الصوت الصادر من الأعماق، فلا تحس إلا أن مايصادفك حينا من تفكير مستقيم أو ملتو ، ومن تحليل سقيم أو مجد، قد وجه اليه شكسبير أنوارا كاشفة فاستباح سريته، وجعل مايعتلج فى صدرى، وصدرك يبدو للناس فى غير تعمل، ولا خفاء، وهذا من غير شك، نتيجة للدراسة الطويلة،والتأمل المتصل، بل ونتيجة للحب العميق للشخصية التى ينتزعها الكاتب من الحياة، فنحن عندما نحب ، ونتوله نمعن فى الدراسة والتتبع ، ونحصى كل حركة وسكنة،ونبصر كل أشارة ولفتة، ونصغى إلى كل حديث ،بل اننا لنعدد الهمسات والانفاس ولنفسر الحركات واللحظات . حقا ليس أبلغ من الحب الخالص سبيلا إلى تشرب الشخصية ، والاندماج فيها والمعرفة لما تنطوى عليه من عواطف ونوازع . .

والحب الغنى ميزة أخرى ، انفرد بها وليم شكسبير عن أقرانه ومعاصريه، ففتحت له قلوب الأحياء، وأطلعته على سرها المكنون، انفرد شكسبير بالحب يملأ قلبه، ويملك عليه وجدانه، لكل مايلق من الأشخاص والأفراد، وإذا ماهام شكسبير وتوله فقد تيسر له الخلق، وتيسر له الابداع، ووليم فنان بطبعه وحسه فلا عجب أن أحب مخلوقاته جميعاً وهام بمبتدعاته جميعاً. يقول «كولردج» وهو شاعر فنان ، وناقد عبقرى من كتاب الطليعة فى القرن الثامن عشر «إن من اليسير أن ننسج من الخيال شخوصا تنطق بافكارنا ، وتحكى عواطفنا ولكن أن نطلق أنفسنا على سجيتها، وأن نرسلها إرسالا لتتعمق فى نفوس غيرنا وتتحدث عن آلامهم وآمالهم ، وتنطق بمشاعرهم وأحاسيسهم فى دنياهم الخاصة، وبيئتهم المعينة، التى قد تبعد عن بيئتنا، وقد تغاير دنيانا، فهو مالا يصل اليه إلا الملهمون أو مالم يصل اليه أحد قبل شكسبير ..»

الفصل الثامن

مغرب العبقرية

تركنا وليم فى لندن ، يخطو خطواته الأولى فى قصد وحذر، وعرفناه فتى طوحت به المقادير إلى مكان الإلهام، ليزكو نبته، وتتقد عبقريته. وشارفناه يخرج من بين الجماهير المغمورة، فيلمع فى سماء الفن والمسرح لمعانا يخطف الأبصار، ويخسف الأنوار، فإذا كل كاتب مهما سما قدره، وعلت منزلته، فى دولة الشعر والأدب يحسب لهذا النجم اللامع ألف حساب ، وإذا شكسبير ذلك « الغراب الحدث الذى يتحلى بريش الطواويس» قد نبتت خوافيه، وغزرت قوادمه، حتى أضحى سيد الطيور غير منازع، يحلق وحده فى سماء الفن ويضرب بجناحيه فى دنيا الخيال فيملأ الجو من موسيقى

ألحانه، ووحى بيانه، مايبهج النفس، ويطرب الفؤاد، ويغذى العقل والوجدان.

هذا الفتى المغمور، الذى دفعته مطالب العيش، ومطارة الأحكام إلى الهجرة من مهده. وملاعب صباه إلى لندن الجارفة، بما يلتقى فيها من سيول مختلفة متنوعة من الرجال، وما ينصب فى محيطها من أفكار لم تغرقه المدينة فى تيارها، ولم تلهه الأيام عن غرضه الاسمى، الذى يهدف اليه، بل سرعان ما انضم إلى إسرة الفن، وعالج التمثيل فى إحدى الفرق وظل نجمه يلمع ثم يخبو، واسمه يعلو ثم يهبط، حتى إذا ماأدركته حرفة الأدب، أعمل عقله وقلمه فى مخلفات الشعراء السابقين والمعاصرين، يصقلها حينا، ويجلو غامضها حينا آخر بل ويقتطع منها طوراً، ويزيد عليها طوراً آخر، حتى إذا ما ثبت قدمه وقوى، انطلق كالعملاق يسابق الريح ويندفع نحو المجد ممعنا فى العدو ناسجا من تجاريبه ومليا من عصارة قلبه ودمه، آيات من الشعر خالدات، ومسرحيات من النسق الأعلى تفيض بالحب والحياة.

ظل هذا الموسيقى، الموهوب فاتحاً أذنه وقلبه لانغام الطبيعة الساحرة، يملأ منها نفسه وحسه حتى إذا فاض قلبه بالحب وأرهفت

حسه التجاريب، أرسل هذه الانغام الحانا وتلك التجاريب مزامير، فاستهوى كل قلب وخلب كل لب وأصبح اسمه على كل لسان علما على الفن الجميل والأدب الصافى والحس المرهف الرقيق

عشرون سنة عاشها شاعرنا فى لندن عبداً لقلمه يشقى للفن ويناضل فى سبيل ابلاغ رسالته، عشرون سنة من عمره القصير وهبها للفن متحرراً من كل قيد، خالصا من كل تبعة، فقد جاء لندن وحيداً ينشد المعرفة وينشد العون على مطالب الحياة واعبائها ... لم يكن يحلم بالمجد فواتاه على غير انتظار، ولم يكن يؤمن بابتسام الحظ فابتسمت له الدنيا كلها، وأصبح حظيا عند الملكة اليصابات تدعوه وفرقته للتمثيل فى قصرها، وتدر عليه من عطفها ما يشتد به عوده ويستقيم معه طريقه . . . وأصبح صديقا للأمراء جميعاً يبادلهم الحب الخالص، ويبذل لهم النصح الثمين، وأضحى الأمراء له عضداً يذللون له كل صعب ويمهدون له كل عسير . . . أقترب وليم من الجماعة المتسلطة على القصر وعلى الحكام من الأمراء، تلك الجماعة التى كان يرأسها اللورد «اسكس» حظى الملكة ووارث تاج الملك من بعدها، فاحب الجماعة وأحبته لتقارب المشارب، فقد كانوا جميعاً يزينهم شباب طموح إلى المجد، وروح وثابة إلى العلا

وجدوا فى شكسبير حافزا لهممهم، وناصحا ومخلدا لآثارهم، وموحيا، فاخلصوا له الحب، ووجد فيهم شكسبير مادة لفنه، ورعاية لأدبه، فاخلص لهم الولاء فاعانهم وأعانوه . . . أشاد بذكر أسكس فى مسرحياته، ولم تخل رواية من رواياته من أشارة عابرة، أو تلميح إلى هذا البطل الشاب كان الجمهور يفهمها ويحسن تلقيها، وأدراكها فقد كان اسكس رجل الساعة المحبب إلى القلوب .. أمتدح شكسبير اسكس فى غير موضع من رواياته وخلد دخوله لندن بعد عودته من أسبانيا فى روايته هنرى الخامس، ولعل هذه الصلات بالأمراء كانت من الأسباب المباشرة التى أثرت فى نفس شكسبير الوفية فحولتها من نفس لا يصدر عنها إلا الهوى والمرح إلى نفس حزينة مكتئبة ترى الدنيا فى لونها القاتم فتصورها بما فيها من أحزان وآلام وتكشف عما فيها من خديعة ورياء .

كان « ساوثهامبتون » نبيلا محببا إلى شكسبير بل كان نجى نفسه وصاحب سره وملهم روحه يجد عنده وليم الراحة من كد الأيام ويجد فيه ساوثهامبتون الناصح والمشير والأستاذ والسمير

أهداه وليم قصائده الأولى فينس وادونس Venus & Adonis واغتصاب لوكريس Rape of Lucrece وكان ساوثهامبتون حفيا

بهذا الشعر حريصا عليه فاهدى إلى وليم شكسبير، ولما يزل فى فجر العبقرية الف جنيه، تقديراً للقصيدة الأولى، وهو مبلغ ضخم على هذا العهد، أعان وليم كثيراً، وهيأ له من وسائل النجاح مادفعه إلى دنيا الفن يقطع طريقها غير هياب ولا وجل، وظلت علاقة الصديقين تقوى على الأيام وتزداد متانة. ووجد شكسبير فى ساوثهامبتون مادة للالهام الشعرى فاهدى اليه مقطوعاته الغنائية Sonnets وهى مقطوعات آية فى الفن الرفيع، والحب الخالص، ودخلت المرأة بين الصديقين، ففترت علاقتهما حينا، إذ كان لشكسبير فاتنة سمراء يحبها ويجد فى الاستماع إلى نبضات قلبها، راحة لفؤاده، وفى الجلوس اليها سلوة لنفسه المتعطشة إلى الهدوء والسلوى

كان وليم وحيداً من الأهل، فقد ترك زوجته آن هاثوى فى استراتفورد، وترك معها أولاده الثلاثه، ولم يكن يذهب إليهم إلا نادراً، فقد الهاه اشتغاله للمجد وحرصه على الفوز فى معمعان الفن، عن التفكير فى أسرته تفكيراً يحمله على دعوتهم إليه للاقامة معه فى لندن، على أن هذا الاعتزال وتلك الوحدة لم تخل من مساعدات كان يرسلها إليهم بين الحين والحين، تعينهم على العيش الهادىء، لاسيما بعد أن ساءت أحوال أبيه، ونضبت موارده

كانت مارى فيتون السمراء الفاتنة لوليم الأهل والصديق ، يجد عندها عزاء لقلبه ، وشفاء لنفسه ، وأرواء لعاطفته ، وكانت مالكة فؤاده ، يتغنى بحسنها ، ويرضى لرضائها ، ويشقى لشقوتها . كانت صديقته الوحيدة ، كما كان ساوثهامبتون صديقه الوحيد ، فكان طبعياً أن يلتقى الصديقان فى بيته بعد أن التقيا فى قلبه ، كان وليم يحب ساوثهامبتون الحب كله ، ويؤثره الإيثار كله ، يغنيه من قلبه مزامير تطربه ، ويهديه من عصارة دمه الحانا مشجية تخلع عليه المحبة وتشع حوله أضواء الخلود ، وكان يحب مارى ويهدأ للقائها ، ويبش لحديثها ، يحدثها حديث نفسه ، ويناجيها بسره وجهره — هذان الصديقان كانا عدة شكسبير فى حياته ، ومصدر محبته والهامه ، أحبهما وتوله فى حبهما ، فكان عزيزاً عليه أن يخسر أحدهما ، أو أن يصاب فيهما معا ، ولكنها المقادير تريد أن تمتحن وليم ، وأن تريه من صنوف الحرمان ماتثبت به فؤاده ، وتقوى جنانه ، لينطق عن معرفة ، ويصف عن حس وأدراك

أحب ساوثهامبتون مارى فيتون سمراء شاعرنا الفاتنة ، وبادلته مارى حباً بحب ، وانطلقا تحت عين شكسبير يتساقيان كؤوس الهوى ويرتشفان خمرة الحب ، وفى نشوة هذا الحب الجديد نسى

الصديقان وليم الحبيب، وهجرا صحبته وملاعبه، وتركاه لينعما بالهوى والشباب، حزالهجران فى نفس وليم، وآلمه النسيان، وأرقه الحرمان، وهو المحب الصادق ذو الحس المرهف والقلب الرقيق، أدمى قلبه هذا النكران وأصابته رعدة هزت كيانه وعلمته الحزن والكآبة، وأرته الدنيا البهجة المتعطرة سوداء قاتمة، فنظر إليها وهو الملهم نظرات صادقات كانت معينه حين كتب مآسيه وفواجعه الكبرى التى خلدت وخلدت اسمه على مر الزمان.

فترت علاقة وليم فترة من الزمن بصديقه ونجيه ساوثهامبتون نتيجة لهذه الحادثة، ولكن أيمكن أن ينسى الحب الفياض، وأيمكن أن يزول من أفق الهوى محب مهما تدلل ومهما أسف فى معاملته، وشريعة الحب هى شريعة الحب فى كل زمان تملى إرادتها فيخضع المحبون لحكمها.

أوجعت وليم القطيعة بعدأن أدمى قلبه النكران، فعالج جراح قلبه بالتذكر لما كان بينه وبين ساوثهامبتون من خلوات وما كان بينهما من أحاديث وعلاقات، فلم يلبث أن غلبه الحنين، وأن دفعه الشوق نحو صاحبه وصفى نفسه... وكان ساوثهامبتون قد اطفأ جوى نفسه الظامئة من الحبيبة الشاردة، وعاد إلى صوت العقل

يناجيه ، فأحس بالخطيئة نحو صديقه وملهمه ، وودلو عادت الأمور إلى مجاريها واتصل ما انقطع ، فمارى السمراء الفاتنة ما كانت لتغنيه عن صحبة شكسبير مهما أسكرته بمعسول لماها ، لقد أحبها من أجل وليم ، وهام بها فى الضوء الساحر الذى كان يخلعه عليها أدب وليم وحلاوة ألفاظه . . . ودّلو عادت الشاردة إلى منزل الوحى ، وود لو بادلته الحب تحت أسقفه وفى ظل أنواره الخلابة ، وهكذا الخلان أبداً تتوارد خواطرهم مهما تقطعت بهم الأسباب وتلتقى أفكارهم مهما نأت بهم الديار وتداخلت بينهم الأشرار . . .

نفسان تلتهبان شوقاً وحنيناً ، وقلبان يتقدان ندما وأنيناً ، فهل يمكن أن يظلا على البعد ، وأن يستمرا على القطيعة مهما تكن الدوافع قوية والموانع جوهرية — ما علمتنا الطبيعة البشريه فى ماضيها أو حاضرها أن سيل الحب يقف فى طريقه عائق ، أو يحول دونه حائل ، فكان طبيعيا وقد عرفنا ما يجول فى النفسين ان يلتقى الخليلان ، وان يعودا الى الود كاحسن ما كانا ، وان تظل علاقتهما بمارى فيتون تلك السمراء الخلابة علاقة محبة ورضى فهى وان تكن صاحبة الفتنة الكبرى وموقظتها ، فمازادت عن انها امرأة ، والمرأة ابدا محبة ومحبوبة ، وما يضير وليم ان يتوله

صديقه بهذه السمراء وهو الذى كان يغريه بالحب فى قصيدته Venus & Adonis ويفتح له ابواب الحياة على مصاريعها ، وساوثهامبتون ينفر كالعذراء ، ويحمر خجلا كورد الربيع الزاهى . . . . لقد فتحت مارى للصديقين دنيا جديدة ، الهمت وليم مغانيه الشعرية الخالدة ، والهمت ساوثهامبتون الحياة والحب . . . عادت انفاس الحب العاطرة تتردد فى صدور الأصدقاء الثلاثة ، وعاد الى شكسبير وحيه والهامه ، وهدأت نفسه الحزينة بعودة الأليف الى صومعة الحب ، وطفق فى ابتهاجه وسروره بهذه العودة ، يضفى على الحبيبين من انغام قيثاره ، الحى ومن وحى روحه الشاعرة آيات من الفن الغبقرى هدأت بها نفسيهما ونسيا فى ظلالها ما ذاقا من وخز الضمير وألم الحرمان

كانت تلك تجربة كبرى رسمت فى جبين شكسبير خطوطا من الألم ، ونحتت فى قلبه ندوبا من الحسرة والحزن ، وهيأت فيه حساً صادقا للفجيعة ، وأدراكا خالصا لما تنطوى عليه من بأساء ، كانا خير معين له على نسج مآسيه الخالدات « هملت » و« عطيل » و « ماكبث » و« لير » ، عند مادار الزمن دورته وقويت فى شكسبير دوافع الفجيعة حين عدت على الحياة العامة فى لندن

وانجلترا موجات من السوداوية والكآبة ،صرفت الناس عن المرح والزمتهم الهدوء والصمت المنبيين عن اللوعة الكامنة فى الأفئدة. كانت اليزابث الملكة المرحة الساهرة قد انطفأ مصباحها الذى شع ضوؤه فى كل مكان وناحية ، فاشعل نار الحماسة فى كل صدر ، وبعث الامل دافئا إلى كل قلب. . اجل انتهى حكم اليزابث والناس فى حيرة من أمرهم ، ترى من يخلف هذه العاهلة التى تفتحت على يديها افاق الحياة الجديدة ، وترعرعت فى ظلها العلوم والآداب؟ — ماتت اليزابث ، وبموتها انقضى عهد وأختتمت إسرة ملكية، وقبل أن تموت أختل ميزان الأمور بين الأمراء ، فهذا إسكس صفى الملكة وصاحب شكسبير ، قد لعبت الأحن والاحقاد دورها فى إبعاده عن قلب الملكة، وفى زحزحته عن مكانه منها ، والملكة فى وحدتها وفى شيخوختها، تتلاعب بها أهواء رجال القصر يدبرون المكايد للأمراء ،وينسجون من خيالهم الخصب أقاصيص تثير الحفيظة فى صدرها عليهم ، فتمتنع عنهم حينا . ثم لاتلبث أن تقربهم حينا آخر — كان أسكس صاحب الحظوة الكبرى عند اليزابث ، وكان محبوب الجماهير ، يتطلع الكل إلى شبابه الفياض وإلى فروسيته العالية ، وينظرون فى إكبار وتمجيد لهذا البطل

الذى يعدونه لتسنم العرش إذا ما أنطفأت شعلة اليزابث .

وأسكس فى ثقته بمنزلته عند الملكة ، وفى اعتداده بنفسه ، واعتزازه بفروسيته ، سادر عن كل مايحاك حوله ، لايستمع إلى نصح ، ولا يستجيب إلى تحذير ، حتى إذا ما اشتدت الأمور وأدلهمت الخطوب ، وضاقت الحلقة حتى أخذت بخناقه ، غضبت عليه الملكة ، وأمرت به فحبس ، وشرد اتباعه ومناصروه من الأمراء ، وفى طليعتهم صفى شكسبير اللورد ساوثهامبتون ، وانتهت هذه المؤامرات المتصلة بمقتل عاهل شكسبير اللورد إسكس وتفرق إخوانه وفرارهم من سيف الجلاد المصلت على رءوسهم . . .

لم يكن عجيباً بعد هذه الحادثة أن يتملك الجزع نفس شكسبير وأن تطلق روحه المرح وأن يزهد فى إضحاك الناس وهو حزين النفس لمقتل سيده وعاهله إسكس وتفرق خلانه . . وليس عجيباً أن يتهم شكسبير بمشايعته للأمير الشاب ، وأن تلحقه هو الآخر وشايات ووشايات ، فقد كان من أشد المناصرين له ، المعجبين بخلاله ، المتغنين بمحاسنه ، على أن شكسبير وأن استطاع أن ينجو برأسه ، وأن يثبت ولاءه وإخلاصه للملكة فى أكثر من

مليئان بالكآبة . . . فالعصر حزين متبرم ، والنفس مجروحة ، والفؤاد ملتاع ، فالاحبة قد تفرقوا ، والخلان قد طاحت رءوسهم وحتى الأب السيد جون شكسبير الذى كان يعول أسرة وليم ، ويتولى رعايتها قد انشبت المنية فيه اظفارها ، ففارق الحياة سنة ١٦٠١ تاركا لشكسبير عبئا ثقيلا ، زاد حمولته وحز فى قلبه ، فاصبح لا يتنفس الا الأسى ، ولا يتمثل الا الحزن والكآبة ، وقبل ابيه مات وحيده « هامنت » فى سن العاشرة دون ان يراه سنة ١٥٩٦ وتركت وفاته فى نفس وليم ندبة دامية ، تحركت مع العوامل الأخرى ، فصاغت من نفس شكسبير اتونا يقذف بالحمم فى دنيا المآسى ، حتى اذا انصهرت نفسه ، وهدأت ثائرته ، عاد الى الهدوء ، وشملت نفسه السكينة وطغى عليه التأمل ، والتفكير العميق فى ملكوت الأرض والسماء ، وعمت وجدانه روح محببة ، روح التفاؤل فى كل ما يعرض له وما يحيط به

تحول شكسبير بعد هذه الثورة الجامحة المتشائمة الى هدأة تفيض بالتفاؤل والرضى والاقتناع ، وأصبح رجلا آخر وديعا هادئا — وفى ظل هذا التحول الجديد كتب شكسبير المجموعة الأخيرة من رواياته ، وهى « سامبلينا » وقصة الشتاء « وبريكليس » « والعاصفة »

وكلها تدور حول الأحلام والمتاعب التى تعرض للنفس ولكنها تنتهى جميعا نهاية حلوة بهيجة كلها سرور وغبطة ، مما يدل على اعتناق شكسبير لمذهب جديد فى التفكير ، هو الرضى عن المقادير والاستسلام لها ولعلها فورة الايمان التى تسبق النهاية ، فقد كانت العاصفة ، آخر ما كتب وليم للمسرح ، وآخر ما خط فى كتاب الحياة الذى تركه تراثا للاجيال يتأملون فيه ويستلهمون منه الوحى والعبرة

إن صوت الريف كان ينبعث من الأعماق فى هذه الروايات مناديا شكسبير أن ، قد آن الأوان للعزلة والهدوء ، فلتقفل كتابك ولتدع قلمك . ولترح أعصابك ، البقية الباقية من عمرك فى قريتك المحبوبة ، وإنا لنحس وليم يستجيب لهذا النداء الصارخ حين دفع بالساحر العظيم الذى أتى بالمعجزات فى « العاصفة » أن يطلق سحره ، وان يغرق كتبه فى اعماق المحيط ، وان يدفن قلمه فى مكان سحيق من الارض لا تقع عليه العين

كانت « العاصفة » آخر ما كتب شكسبير فهى الصفحة الختامية لهذا السفر المنطوى على ست وثلاثين رواية هى عصارة القلب وشعلة العقل ، كتبها وليم بمداد من دمه ، ووحى من

تجاريبه ، فلا عجب أن نجده بعد هذا الجهاد الجبار الذى اتصل عشرين عاما ، قد وهنت قواه . وضعف بدنه ، واحتاج الى الراحة فى قريته الجميلة استراتفورد على نهر الافون

هجر شكسبير لندن سنة ١٦١٢ الى قريته الوارفة الظل ليعيش فى ظلال الوادى الذى أحبه ، أيامه الباقيات — ذهب وليم الى استراتفورد ، بعد ان جاهد جهاد الابطال ، ووصل الى القمة فى فى سنوات معدودات ، وخلف وراءه تراثا من النور ، والحكمة ستظل الأجيال تنهل منه ، وتستضىء بهديه ما بقى على الأرض ، متكلم أو مفكر

بدأ شكسبير حياته فى لندن ممثلا يلعب الادوار الثانوية ويحل محل الغائبين من الممثلين الأول لقاء دراهم معدودات ، ولكنه لم يلبث أن قفز من الظل إلى النور ، وأصبح عماد فرقته ومغذيها بلبان فكره ، ولوامع درره ، وبعد أن كان ممثلا ، أضحى مؤلفا ومخرجا ، ولكنه حين علا كعبه ، وامتد ظله ، لم ينس حرفته الأولى ، ولم يطلق أدواره الحبيبة ، فكان يلعب من حين إلى حين ، بعض الأدوار التى تروقه ، والتى يرى حين كتابتها أنه أقدر من غيره على إبرازها وتوضيح شخصيتها ، وأول ما نعرف شكسبير ممثلا

سنة ١٥٩٣ حين انضم إلى فرقة اللورد شامبرلين ، وظهر على المسرح أمام الملكة اليزابث مع الممثل المشهور (Burbage) «بير بادج» ، وظل نجم شكسبير بعد ذلك يعلو فى الكتابة والمسرح حتى أضحى فنه مصدر كسب عظيم له ، أغدق منه على أسرته ما أصلح حالها ، وعاد بأبيه سيرته الأولى من الإتجار والثروة ، وفى سنة ١٥٩٧ ، استطاع وليم شكسبير أن يشترى ببعض ما تجمع له من أموال بيتا فى استراتفورد اسمه (New place) بمبلغ ستين جنيها ليكون مقراً له حين زيارته للقرية الجميلة ، كما اشترى عقاراً أخر فى لندن ، وفى هذه السنة نفسها ، ظهرت أولى مطبوعات شكسبير الروائية ، إذ نشرت له ثلاث روايات هى : « روميو وجولييت » و « ريتشارد الثانى » و « ريتشارد الثالث » ، وقد سبق هذا النشر الروائى ، نشر شكسبير لقصيدة «فينس وأدونيس» سنة ١٥٩٣ وقصيدة «اغتصاب لوكريس» سنة ١٥٩٤ وكلتاهما مهداتان الى اللورد ساوثهامبتون رمز صداقة وولاء ... وتتابعت السنوات بعد ذلك ، وتتابع معها نشر أعمال شكسبير ، وكانت أولى الروايات التى حملت اسمه كمؤلف رواية جهد الحب الضائع Love's labours Lost سنة ١٥٩٨ وفى هذه السنة نفسها توطدت بين شكسبير وبين «بن جونسون»

الكاتب المسرحى الشهير صداقة ومحبة ، كانت مثار إعجاب الناس وموضع رضاهم ، فقد كان الصديقان يجتمعان دائما ويتبادلان الآراء ، ويتراشقان النكات الحلوة ، والنقد اللاذع ، وقد ظلت صداقتهما قوية حتى قضى شكسبير فكان بن « جونسون » آخر من رآه وآخر من ودعه .

ولا شك أن شكسبير قد تفتحت له أبواب الرزق كما تفتحت له أبواب العبقرية ، فانسالت عليه الأموال ، من المسرح ، ومن الروايات ، ومن النشر ، ومن القصائد ، ومن أملاكه ، بدرجة استطاع معها أن يشارك فى ملكية أكثر المسارح التى كانت تعمل فى لندن على عهده ، وأن يشترى أراضى زراعية فى بلدته استراتفورد وأن يشترى بيتا آخر هناك .

لقد كانت المسارح التى تعمل فى لندن أيام شكسبير أربعة هى : « الستار Curtain » و « المسرح Theatre » و « الوردة Rose » و « البجعة Swan » وكانت كلها خارج مدينة لندن على ضفاف التيمز الجنوبية

أما فى لندن نفسها ، فكان هناك مسرحان عمل فيهما شكسبير هما مسرح « الرهبان السود » Black Friars ومسرح

« الكرة » Globe وكان الأول ملكا « لبربادج » Burbage الذى عمل معه شكسبير فى أيامه الاولى، وأما الثانى فقد بناه بربادج أيضاً هو وإخوانه ومنهم شكسبير سنة ١٥٩٩ ، ولهذين المسرحين ظل شكسبير يعمل ممثلا ومنتجاً ، وانتهى إلى المشاركة فى ملكية « الكرة » وقد توفر له بهذا حظ كبير وقسط عظيم من الثروة أتاحا له فرصة شراء أراض زراعية وأملاك فى مسقط رأسه ومهد صباه ، كانت تدر عليه مبلغاً كبيراً فى كل عام ، ووفرت له بذلك حياة هادئة ناعمة فى مغرب عبقريته — وقد ظل شكسبير طوال أيامه يعمل ناشطاً فى التمثيل والتأليف والإخراج ، إلى أن شغله الإبداع الفنى الخالص ، وانتاج الروايات من وحى عبقريته ، فانصرف عن التمثيل ، وعكف على الكتابة وحدها ، وقد استغرقت جل وقته ، إذ كان يخرج للمسرح فى كل عام روايتين أو ثلاثة ، وكان إلى ذلك يشرف على الإخراج والتمثيل ليضمن فهم الممثلين لأفكاره وتحقيقهم لاهدافه .

ظل شكسبير فى لندن لا يبرحها حتى بنى مجده ، وأقام أسس عبقريته على دعائم متينة ، وأضحى اسمه معروفا مذكوراً ، وأعماله مشهورة محفوظة ، ففكر فى أن يعيد إلى استراتفورد مجد أسرته القديم واسمها التالد ، فطفق يشترى الممتلكات والعقار ،

ويتوسع فى الخيرات ، حتى أضحى لإسم شكسبير جاهه وسلطانه ، وارتضاه أهل القرية إماماً وناطقاً باسمهم ، ومعبراً عن مشاعرهم — وحين ابتنى شكسبير فى ستراتفورد هذا المجد ، وامتلك هاتيك الثروة ، ظل يتردد عليها سنواته الأخيرة فى لندن مشرفا على ضياعه ، ومتعهداً لأعماله ، وراعياً لأسرته وزوجه ، وفى سنة ١٦٠٧ تزوجت كبرى بنتيه من صيدلى باستراتفورد ولم تلبث أن أنجبت له حفيدة سنة ١٦٠٨ ، قرت بها عينه ، وسرت بها أمه «مارى أردن» ، ولكن سرورها لم يطل إذ اختطفتها المنية فى أواخر هذا العام ، وذهبت روحها إلى بارئها راضية مرضية ، قريرة العين ، أن رأت ابنها الشارد يعيد ما انصرم لأسرتها من مجد ، وما تناثر على يد الزمان من رفعة وعلو شأن ، وفى أواخر سنة ١٦١٢ عاد وليم شكسبير إلى قريته استراتفورد على نهر الافون ، ليعيش فى هدوء مع زوجه وأسرته ، وهو بعد لم يناهز الثامنة والاربعين ، وليتمتع نفسه فى ظلال الوادى السحرى الذى فتق عبقريته وأشعل نيرانه المقدسة فأضاءت العالم وملأته سنا وسناء .

عاد شكسبير ليهدأ بعد عمل متواصل دام ست وعشرين عاما ، كافح فيها حتى وصل إلى غايته ، وحقق بغيته ، فى المجـــد

والخلود — عاد شكسبير إلى مراتع الصبا ، وغدران الفتية ليريح فؤاداً أضنته الأيام ، وقلباً أوجعه الحدثان ، وعقلا أنهكته الأفكار ، وجسداً أوهنته الأعمال — عاد ليفكر فيما مضى وليتأمل فيما سيأتى قرير العين بما كسب هانىء النفس بما أدى فخوراً بما أنتج راضياً عن نفسه مرتاح الضمير ، لأنه ما ونى ولا قصر ، وليس أسعد من انسان عمل ففاز ، وجاهد فلم ينحاز ، وأدرك منتهاه ، وحقق مبتغاه ، من أسلم الطرق وأشرفها ، ثم انصرف فى رضى وقناعة ، مكتفياً بما أدى ، تاركا السبيل لغيره .

لقد عاش شكسبير مجاهداً ، وانتهى مسالماً ، بعد أن قطع فى حياته القصيرة أشواطاً لن يدركها أحد بعده — أسلم شكسبير نفسه للدعة والهدوء ، وعكف على مزارعه ومرابعه يتعهدها ويذكر فيها أيام صباه ، ولم يثنه مقامه فى استراتفورد عن الرحيل من حين إلى حين إلى لندن ليشاهد آثاره ، ويستمتع برنين المجد يتصاعد إلى مسامعه .

عاش وليم ليشاهد المجد الذى انهار أمام عينيه ، وهو فتى غض العود ، يعود إلى ما كان له من جلال ورواء ، ورأت عينه فى رجولته عودة الدنيا واقبال الزمان ، بعد ان اكتحل فى صبوته

بذهاب الدنيا وادبار الزمان ، وهكذا كانت حياة وليم سلسلة من المفارقات العجيبة ، والمصادفات السعيدة التى قلما تتهيأ فى زمان أو مكان إلا إذا كانت يد العناية من ورائها تغذيها وتنميها

عاش وليم ليشهد زواج ابنته الثانيـــة « جوديث » Judith سنة ١٦١٦ ، وليكتب وصيته الأخيرة ، وفيها أغدق كل ثروته على ابنته الكبرى « سوزان » وأوصى لابنته « جوديث » ببعض المال ، وترك لزوجته « ان آتواى » نصيبها الشرعى ، ووهبها فراشه الثانى ، كما ترك لأخته نصيباً ، وللفقراء فى استراتفورد نصيبا آخر ولم ينس أصدقاءه الممثلين ، فترك لهم حظوظاً متفاوتة فى ميراثه .

وفى الثالث والعشرين من شهر ابريل سنة ١٦١٦ اقتم جو استراتفورد وغامت شمسها إذ اختارت الاقدار هذا اليوم مغرباً للشمس التى ضاءت وتلألأت ربع قرن فى سماء لندن واستراتفورد ، وتركت للناس ميراثا خالدا من الحكمة ، ونبعاً صافياً من المعرفة ، ما يزالون ينتهلون منه ، ويستضيئون بوحيه .

نعم خفت هذا الصوت الملىء الذى طالما رن صداه فى مسارح لندن وقصورها ، وانطفأت هذه الشعلة المباركة التى طالما أضاءت

نفوساً حيرى وألهمت أرواحا شاردة ، نعم خفت صوت جبار القرون ، وانطفأت شعلته الملتهبة ، وأصبح هذا الإنسان العبقرى فى سجل التاريخ — أسلم وليم شكسبير فى الثالث والعشرين من شهر إبريل سنة ١٦١٦ أنفاسه الأخيرة فى هدوء وسكينة ، بعد مرض لم يمهله سوى أيام ثلاثة ، وانطوت بموته صفحة خالدة من صفحات الحياة — ودفن الجثمان فى كنيسة استراتفورد فى اليوم السادس والعشرين عن ثلاث وخمسين سنة ، وحزنت استراتفورد الجميلة لفقد عاهلها ، وحزنت لندن لفقد واحدها — وأقام محبو شكسبير تمثالا له ، نصبوه عند قبره ، ونثروا على رفاته زهوراً ، طالما أحبها فى حياته ، وهكذا قضى حيث نبت ، ومات حيث ولد وفيا لمرابعه ومراتع صباه .

ولم تمض ستون سنة على موت وليم شكسبير حتى انقرضت أسرته ، ولم يبق منها واحد فى عداد الأحياء ، وبذلك لم يعد لشكسبير ذكر إلا فى كتابه الحى الخالد ، ذلك الكتاب الذى يقرأه المتفرقون فى أقاصى الأرض على اختلاف لغاتهم ، وتعدد ميولهم ، وتفاوت أهوائهم ، فيجدون فيه الحياة مسطورة بأحداثها ، وحكمها ، وأهوائها ، وميولها ، يقرأونه جميعاً ، ويعرفونه

جميعا ويدينون له بالفضل جميعاً .

هذا الكتاب المقروء عند الناس أجمعين ، يرى فيه كل حى صورة نفسه ، يرى فيه آلامه وآماله ، ويلتمس عنده المخرج من الضيق ، والفرج من الشدة ، والملجأ من مرارة الأيام ، والمرفه فى المرض ، والمشجع عند اليأس ، والحافز عند الهزيمة ، والواعظ حين البطر ، والمذكر حين الاشر ، والمؤنس حين الوحشة ، والمنقذ حين العوز ، والمرشد حين الضلال ، هذا الكتاب الحى الخالد ، استطاع أن يجمع الناس عنده وأن يلهمهم ويلهب حسهم ، وكفى ذلك شكسبير فخراً ، فقد استطاع أن يوحد كلمة الانسانية وأن يجمعها على كتابه منذ أربعة قرون ، على حين فشلت الانسانية وفيها العقول الجبارة ، والنفوس الملهمة ، أن تجمع كلمة العالم على عهد وثيق ، يؤمن الخائف ، ويهدى الضال ، ويطعم المحروم ، ويبسط السلام على الأرض .

هذا الكتاب العظيم الخالد ، هو كتاب الحياة ، كتاب العبقرية ، وسر خلود شكسبير ، وآية عظمته ، فلنتلو صحافه خاشعين ، ولنذكر ذلك الرجل الذى سكب روحه فى تلك الصحائف ، وخطها بمداد من دمه ، فى إكبار وإعجاب خليقين به . . »

الفصل السابع

قطوف من جنا العبقرية

كان لابد لنا بعد أن رسمنا للقارىء صورة عامة لفن شكسبير وأدبه المسرحى ، أن نضع بين يديه قطوفا من هذه الجنة الدانية الثمار ، عله أن يجد فى حلاوة رحيقها ما يغريه بارتشاف هذه الخمر المعتقة ، التى ظلت قرونا تسكر بحلاوتها الشاربين ، ولن تزال معينا للبهجة ، ومصدرا للالهام ، مادام على الأرض نفس يتردد — وقد عنينا ونحن نقتطف هذه الثمرات ، أن نقدم للقارئين صنوفا وألوانا من جنا هذه الجنة الفيحاء ، ليكون التمثيل جامعا منوعا ... ورتبنا هذه المنوعات ترتيبا زمنيا ليساير القارىء معها كم العبقرية وهو يتفتح ، وليشاهد شعلة النبوغ وهى تتقد .

لعل أول ما عرف من انتاج شكسبير الأدبى هو قصيدته فينس وادوينس ، وقد لخصناها فى موضع آخر من الكتاب ، كما لخصنا قصيدته الثانية « اغتصاب لوكريس » ، ونحب فى هذا المقام ، أن نقتطف من القصيدة الأولى مقطوعات تنبى عن قوة التصوير ، وبلاغة التعبير — بدأ الشاعر بوصف مكان اللقاء وزمانه :

عندما قطعت الشمس ساعات الصباح
ونضت عن نفسها دموعه النديه
ومضت تكسو وجهها حمرة الضحى
انطلق ادينوس جاد السير مستحث الخطى
إلى جوف الغابة الملتفة يلتمس الصيد
فقد كان الصيد كل هواه
أما حديث الحب فهراء لا يستثير إلا السخريه
ولكن فينوس تمضى فى اثره تلاحقه
كمحب أتلفه الحب وألحت عليه الرغبه
فهى تناجيه وتراوده
وهو لا يلقى بالا إلا إلى صيده
فينوس — يا أجمل زهرة تبسم عنها الروض

وتنفس بعطرها الوادى
يا من حبته الطبيعة جمالا فاق جمالها
أضعافا ثلاثة وعلا على حسن الملائكة
وبز فتنة الرجال
أنت يا من ختمت الطبيعة به آيات خلقها
فكنت الجمال وكنت الكمال . . .
هلا لويت عنان هذا الجواد
وعقدته إلى السرج وترجلت
ان أوليتنى أنا المحبة هذا الجميل
أطلعتك على أسرار قلبى العليل
تعال الى هذه البقعة الطهور
قد خلت من اثم الشر والفجور
ودعنى أمطرك وابلا من القبل
قبلا لا تحس منها ملالا
أو تلوى فمك الجميل عنها كالا
احتوت رشفاتها كل لون وطعم
هذه قبلات عشرة قصيرة كأنها واحدة
وهذه طويلة كأنها مائة

ولشد مايقصر اليوم وينتهى
ونحن لمانزل فى لهونا الشهى

وتمضى فينوس فتنزع الفتى من سرج جواده وتجلسه اليها ثم إذا هما جالسان وقد اعتمد الفتى على ذراعيها ، وهى مقبلة عليه تمطره بقبلاتها وهو يلوى عنقه عنها خجلا

كست وجنيته حمرة الخجل
فالهبت خديه ناراً تشتعل
ودموع فينوس الهامية تطفىء ما استعر
من حريق تقدح الانفاس منه ماخمد
إن أراد النطق بلوم أو نطق
عادت القبلات تترى فسكت

فينوس — إن أعدت اللوم أو رمت الكلاما
لم أزل أقتل بالضم الكلاما
بعناق وقبل . . .

وفى حرارة الشوق تلثم كل موضع فيه ، حتى إذا لم يبق مكان لم تلثمه شفتاها ، عادت من جديد للضم والقبل ، وأدونس لايزداد إلا ضيقاً ، ولا يضطرم فى وجهه إلا حمرة الخجل ،

يحاول أن يصدها أو ينحيها عن صدره، فما تزداد إلا أقبالا .

(فينوس) : -

لا تخـــل إنى حافلة
أو ينـال الصد منى نائلة
بل قسماً بجمالك المنشود
لا أرعوى عنك أو أعود
حتى توفى دمعى المنسكب
بقبلة منك تقضى الأرب

ويرى أدينوس إلا مناص من أن يقبل هذا ليخلص منها فيوافق على منحها قبلة ، ولكنه حين يرفع رأسه ليوفى الحساب ويلمحها مقبلة عليه يغلبه الحياء فيشيح بوجهه عنها ولكنها تتلهف على هذه القبلة ، وتذهب نفسها من أجلها حسرات .

كمسافر أجهـــده الحرور
فى يوم صيف قيظه مستطير
تشتهى نفسه قطرة من شراب
تطفىء النار وتودى بالعذاب
بلل الدمع خدودا فارتوت
غير أن النـــار فيه مازوت

(فينوس) : —

إنها قبلة لا أبغى سواها
انلها النفس لاتبغ أذاها
ايها القلبُ أمن الصخر قددت
أم أذاب الخوف منك الرجل . . ؟

وتظل فينوس تناجيه وتثير فيه نخوة الحب حتى تخرجه عن صمته

(أدونس) : —

لا تحسبى منى الصدود تجافيا
وما كان فى صدرى من الحب خافيا
ولا تستعجبى إن لم أكن بك حافلا
فما كنت أدرى ما الصبابة والجوى
وما انا بالمسلوب مستعر الهوى
ولكنى صغير السن لا أدرك الهوى
فهل يقتضى هذا الغرابة من أمرى ؟

ويظل هذا الحوار بينهما هو يصد وهى تلح ، حتى ينطلق جواد أدونيس فى أثر فرس وقد نحا عن رأسه العنان ، وانتبذ القيد ، ويسرع أدونيس للحاق به ، فلا يستطيع فيعود وقد أجهده العدو وملأه الغضب.

(أدونس) ألا فدعيني قد اضعت جوادى
بلغو حديث فارغ ومعاد
وأذهبت من يومى جمالا وبهجة
وما كنت أرجو من لقاء صحابى
ألا تشعرين العار ويحك فاذهبى
وخل سبيلى قد أطلت عذابى
وما عاد يغنى القلب قول محبب
وترديد آهات وبث شكاة
وأن بقلبى من جوادى لغصة
فان لم يعد طارحته حسراتى

(فينوس) لعمرك ما ضل الجواد وما غوى
وهذا نداء الدم قد أحدث النجوى
وهذا دبيب الهلتفات بعرقه
يعلمه ألا حياء ولا خوفا
وأن دعاء الحب نار وقودها
هو القلب ما ينفك مستعراً وقدا
وأن غرام النفس لا يعرف الحدا

وأن عرف البحر العظيم له حدا
فلا تعجبن إن حطم القيد وانبرى
لحاجته لا ينصت السمع أو تقضى
ألم يك مربوطا يذلله الأسر
يقيده جلد ويحزمه شعر
فما أن رأى الحب الجميل بعينه
وهاجت به الأشجان واستعرت ومضا
فهب إلى القيد البغيض محطما
وأهوى على الأرسان يوهنها قضما
وأمضى يهز الجيد حراً وهامة
وهذا الصدر متقد جمرا
ألا فاسمعن منى عن العاشق العذرا
ولا تغضبن إن هتك الحب السترا
بلى وليكن هذا الجواد معلما
يلقننا درسا ويفهمنا علما
تعلم وأقدم لا تضع ما وهبته
من الحب صفواً غير مختلط كدرا

وإن دروس الحب جد مفيدة
إذا حفظت يوما فلن تذهب العمرا

(أدونيس) إن هذا الحب شيء أجهله
لست أدريه ولا لن أعرفه
إن يكن صيداً فإنى أنشده
إن يكن حباً فإنى أمقته
إنما الحب دموع وأسى
وموات وحياة فى تعس
وعطاء يرتجى أو يلتمس.

ويمضى أدونيس إلى صيده ، وتمضى فينوس فى إثره حتى تقع عيناها عليه جثة قد حطمها الموت وحال لونها : --

تبصر العين منها مشهداً يجلب الأسى
وشفاها لونها حائل شاحب
ترفع اليد وهذه ميتة باردة
وتصب فى الأذن قول صب مضيع
لن تسمع الأذن من حديث أو تع
تفتح الجفنين عن مقلة لا ترى
سرق الموت نورها، لم تعد تبصر الهوى

وترقد فينوس فوق الجثة الهامدة تبكى جمالا مضيعا ، وأنها لترى زهرة نامية قد رويت من دماء الحبيب ، فتقطفها وتجعل مكانها فى صدرها حيث النجوى وحيث الحب : --

أرقدى حيث كنت أرجو الحبا
فى مكان شئته لأبيك ملعبا
قد جعلت الصدر مهداً كنت فيه الولدا
هزه القلب دائبا لاينى أو يتعبا
لن أنام الليل أو أقضى الزمن
فى سوى الحب وذكرى الشجن

وما دمنا فى معرض الشعر فلنسترسل قليلا ، ولنمض فى قراءة بعض المقطوعات الغنائية التى كتبها الشاعر ليفصح عن احساس نفسه وعما اختلج فى صدره من أحاسيس فيها الحب وفيها الرضى وفيها الألم وفيها الشكوى .

ثورة (١)

كالموج هادرة ومقبلة ... ايامنا للشاطىء الصخرى
متزاحمات فى تقدمها ... متفاوتات الطول والقصر
تدنو مزمجرة لغايتها ... والموت فى أذيالها يجرى
واليوم يمضى ثم يعقبه ... يوم يحل بساحة الذكر

والومضة الأولى التى طلعت ... فى ظلمة الديجور والغلس
بلغ الكمال بها فصيرها ... نوراً يفيض كشعلة الشمس
فاذا الكسوف اناف مكتئبا ... أودى بنور الشمس والقبس
يعطى الزمان اليوم منته ... ويرد ما أعطاه بالأمس

إن الشباب وحسن طلعته ... يذوى مع الأيام والزمن
ولكم جبين فاتن طمست ... منه الغضون معالم الفتن
فاهنأ حبيب القلب مبتهجا ... بالكون فى اشراقة الحسن
وتمل ساعات الحياة فما ... بعد الحياة لناسوى الكفن

إنى وشعرى العبقرى وما ... ابدعته من خالد النظم
كالعابد المفتون مبتهلا ... يتلو عليك روائع الكلم

الكذب الحى

حينما تقسم — ماأكذبها —
انها صيغت من الصداق الصراح
أدعى إنى قد صدقتها
ماعلى الكاذب فى الحب جناح
علها تحسب أنى حدث
لم تهذبه شجون وجراح
كذب الدهر عليه فمضى
يحسب الدنيا مراحا ومزاح

ويح نفسى !! أأنا فى زعمها
ذلك الجاهل والطفل الغرير
ذهبت أجمل أيامى فما
أرتجى السلوان فى الباقى القصير
غير انى كلما تكذب لى
اتلقى المين كالراضى القرير

وكلانا خادع صاحبـــه
كاتم للحق فى جوف الضمير

يالدعواها ودعواى !! ومـا
ضرنا لو لم نكن فى الكاذبين

أنت !! ما ضرك لو صدقتنى
وأنا لو جئت بالصدق المبين

أمن الحكمة فى شرع الهوى
أن يكون المين دين العاشقين

لنقل أنا صغـار انمـا
يخمد الصبوة تعداد السنين

فدعونى وحبيبى وحـدنا
نتهادى الزور من دون العبـاد

غفر الله لنـا أكذوبة
جمعت قلبين فى دنيا الوداد

الحب يتغلب على كل شيء

حينما تعثر فى الدنيا جدودى
ويرانى الناس منبوذاً مريبا
أسكب الدمعة حرى كمدا
وأوالى الندب ، محزونا كئيبا
تقرع الصرخة أبواب السما
لا تجد فيه سميعاً أو مجيبا
ثم أولى النفس لوما وأسى
بالذى لاقيت ، لعنا ونحيبا

* * *

ليتنى كنت رضيا آملا
كالذى يحيا بمعسول الرجاء
صورتنى مثله دنيا الأمانى
وأحاطتنى بخير الخلصاء

أتمنى أن أنل حظا بهيجا
حظ ذى الفن وموفور الكفاء
وانا الراضى بما فزت قريرا
قلت المتعة ، أو اربى هنائى

* * *

ساورتنى هذه الآراء حتى
ضقت بالنفس امتعاضا ونفورا
فإذا ما طاف بى منك خيال
وأتت ذكراك سعداً وحبورا
كنت كالطائر أخلى عشه
فى انبثاق الفجر ، طيراً وظهورا
ومضى يملأ أسماع الدنا
فى طباق الجو تشبيبا طهورا

* * *

إن تكن تعلم هذى ثروة
فهى من فيضك والحب العميم
لست أرضى بعدها لى بدلا
بالملوك الصيد ، والمجد الجسيم

الروح والجسد

آه ، لو أن ذرات جسمى
خلقت من سوانح الآراء
لطويت الفجاج ، أرضا فارضا
لم تعقنى مفاوز البيداء
وتدانيت من مكان قصى
رغم بعد النوى ، وبعد الثواء
وتناهيت ، حيث أنت مقيم
وتوصلت ، حيث أنت رجائى

* * *

وسواء لدى ، من بعد هذا
أن يمد الزمان حبل الفراق

أو يكن بيننـــا مكان سحيق
فى بعيـــد الفجـاج والآفاق
فإذا الشوق هـزنى واستبدت
بفـؤادى لواعج الأشـواق
جاوزت بى إليـك براً وبحـرا
خطـرات المتـيم المشـــتاق

* * *

يا لثـكلى ! فما أنا طيـف
من طيوف الخواطر السانحات
كيف أستطيع إن تناءيت عنى
أن أجوز المراحل الشاسعات
واستحال اللقاء ، وامتدت الأر
ض ، وفاض العباب بالزاخرات

لم يكن لى على الفراغ مراح
غـير دمع ، وإنة وشـكات

* * *

لم أفـد من تأملى فيـك إلا
ما يفيـد المحـزون من آلام
ودموع سكبتهـا وهى تترى
أفصحت عن تحسرى وهيامى

ترجم هذه القصائد شعرا الاستاذ الشاعر « توفيق أحمد البكرى »

الحسن الخالد (١)

وأنا لفى طلب المزيد من الحسن
وإلا أصاب الحسن عصف من الوهن
كزهرة هذا الروض بعد اكتمالها
يحل بها سهم المنون فلا تبقى
لعمرك قد أنكرت حق طبيعة
حبتك جمالا إذا أبيت له نشرا
كأنك نار اطعمت لوقودها بنار
فما أجدى الوقود ولا أغنى
عشقت بعينيك المفاتن مابدت
بعينيك ماتبغى لحسنهما نسلا
فكنت لهذا الحسن منك مناصبا
عداء وكان الخير والحق ان يسرى
جعلت فقيرا ما اردناه زاخرا
وأحلت جمال الروض مكتئبا قفرا
حنانيك لاتحرم وجودا جماله
وإلا فانت كذاك الموت فى المنع والحبس

الحسن الخالد (ب)

وأن الأربعين إذا بلغتها
وشقت لها فوق الجبين غضونها
وكان لها ما كان من عصف
بهذا الجمال العبقرى ومن خسف
وراح رداء الحسن بعد بهائه
معطلة أطرافه من روائه
وكان سؤال الناس أياك ماصنعت
يداك بذاك الحسن منه وما ابقت
فلست تجد إلا عيونا تذبلت
وصفحة وجه قد ذوت وتجعدت
وانك ما أحراك أن تقضى العمرا
وأن تكتسب فوق الوفاء به فخرا
إذا انت قد خلفت للناس صورة
تطالعهم من حسنها قمرا بدرا
وكان جواب السائلين سؤالهم
محاسن ذاك الوجه قد حفظت ذكرا

الحبيبة الباقية

هل لى أن أقارنك ياحبيبتى بيوم من أيام الصيف :
انت أحلى وأهدأ وأبقى ....

الريح العاتية كثيراً ما تعبث بأكمام الأزهار والشمس طالما تقترب من الأرض وطالما تختفى ، والورد يذبل أحيانا ، وتحمله معها تيارات الغدير . . . .

أما انت ياحبيبتى فصيفك ، لا يذبل فيه ورد ، لا ولن يستطيع الموت أن يفخر بأنك سرت بين ظلاله مهما طال الزمن ، أو عدى عليه الهرم .

ابدا انت حية :
فما دام فى الدنيا إنسان ،
وما دامت فى الأرض عين ترى .
فشعرى هذا سيعيش ويخلد
وانت ستعيشين معه وتخلدين . . .

انتظار الحبيب

مادمت عبدك فما على إلا أن أرقب الساعات وأعد الدقائق من أجلك .

ليس لدى من الوقت الثمين ما أقضيه ولا من الأعمال ، ما أعمله إلا أن تطلى منى ذلك ، لا ولا أجرؤ على عتاب الساعة إن سارت فى بطء وأنا أنتظر مقدمك .

لا ولا أستطيع أن أحسب مرارة البعد مريرة حينما تبرحينى مودعة .

لا ولا أجرؤ أن أسأل نفسى حين تعبث بها الغيرة أين تكونين وأنت بعيدة عنى ولا أى شىء تفعلين .

هكذا يأمر الحب ياحبيبتى

كل ما تفعلين وكل ماتقولين حبيب إلى نفسى قريب إلى قلبى

تمثيليات

« روميو وجولييت »

روميو فتى من أسرة (مونتاج Montague) وجولييت فتاة من أسرة (كابيولت Capulet) والأسرتان تتنازعان مراتب الشرف فى فيرونا ، وتتوارثان بحكم هذا المركز ، إحنا وأحقاداً قديمة ، تغلغلت فى نفوس أفراد الأسرتين جميعا ، وانتقلت نارها المستعرة الى الخدم والحشم ، فما يمكن أن يلتقى واحد ممن ينتسبون إلى هذه الأسرة ، بآخر ممن يمتون بصلة إلى تلك ، حتى تستعر نار الخصومة ، ويورى زند الخلاف وتشهد شوارع فيرونا الهادئة كأثر لذلك معارك دامية عنيفة تعكر صفاءها . . .

وفى ليلة من ليالى الزمان الساحرة ، دعا لورد «كابيولت» جميلات فيرونا إلى وليمة راقصة فى قصره ، وفتح أبواب قصره العتيد ، لكل عاشق للجمال ، محب للفتنة من أهل فيرونا ما دام لا يمت بصلة إلى أسرة «مونتاجيو» البغيضة . . .

وكان بين جميلات فيرونا اللاتى دعين إلى هذه الحفلة الساهرة « روزالين » حبيبة « روميو » ابن اللورد « مونتاجيو » — وزين الشوق «لروميو» أن يذهب ليرى حبيبة الفؤاد ، وليكن ما يكون ، ويسر له الخلان السبيل وهونوا عليه الأمر ؛ فذهب فى صحبتهم متنكراً فهو من أولئك الذين يستهويهم الحب ؛ فيسهرون الليل من وجد العشق وحرارة الهيام . . . واستقبلهم اللورد «كابيولت» بقلب مرح ... وما كاد يستقر بهم المقام حتى دار الرقص وعلق بصر «روميو» فجأة بغانية فاتنة ساحرة ، ترقص فى ناحية من البهو الكبير ، فكأنما نزعت منه هذه النظرة فؤاده واستلبت لبه ، فانطلق يتغزل فى محاسنها ، ويضفى على جمالها وكمالها ألوانا من سحر القول استمع له واحد من أسرة «كابيولت» مصادفة فعرف روميو من صوته ؛ فهاج ثائره ، وود لو استطاع أن يقتل هذا الطارق الغريب ، ولكن عمه حال بينه وبين بغيته ؛ فسكت على مضض وأضمر « لروميو » الحفيظة ، وتوعده ليوم قريب يصفى فيه حساب هذا التطفل . . .

وطار «روميو» على جناح الحب إلى حيث ساحرة لبه ، وسالبة فؤاده ، يبادلها الحديث ويسجد أمام هيكل الجمال فى خشوع وضراعة ،

كحاج جاء يلتمس الرضى وينشد العفو ،ودار بين «روميو» وفاتنته حديث كله سحر ، وتلاعب بالألفاظ ، دعيت أثناءه مالكة الفؤاد لتجيب سؤل أمها فاستأذنت منصرفة ، وتركت «روميو» يتساءل من تكون الفاتنة ؟

وعلم روميو أن سالبة فؤاده ، ومالكة قلبه أن هى إلا «جولييت» ابنة اللورد «كابيولت» عدوهم العتيد . وعلمت «جولييت» أن هذا الفتى الفارع ، الذى كان يحاورها عن نفسه هو روميو ومن آل «مونتاج» وهلعت نفس العاشقين للخبر ولكن شرارة الحب كانت قد اتقدت ونفذت إلى القلبين الشابين فى حرارة وقوة فهل تردهما عن كاس الحب المترعة تقاليد موروثة وعداوات متأصلة . . هذا مايجيبنا عنه شكسبير فى هذه القصة الخالدة — فان «روميو» ما كاد ينصرف مع رفاقه فى منتصف الليل ، حتى عاوده الحنين إلى المكان الذى ترك فيه قلبه ، فانفلت عن رفاقه ، وتسور الحديقة التى تقع خلف قصر «جولييت» وجلس ليسكن ثائر قلبه ، وما عتم ان اشرفت «جولييت» من علياء قصرها على الحديقة ، فابصرها «روميو» ودار بينهما حوار طريف خالد ، يتمثل فى منظر الشرفه الذى ننقله بأكمله من رواية «روميو وجوليت»

منظر الشرفة

(روميو) : —

لايعرف الشوق إلا من يكابده
ولا الصبابة إلا من يعانيها

(تظهر جولييت فى الشرفة)

ولكن صه ، ماهذا النور الذى ينبلج من الشرفة أنه الشرق والشمس جولييت . .

أشرقى ايتها الشمس الساحرة ، ولتبددى بنورك القمر الحسود . الذى كساه الكمد شحوبا وسقما . من أنك وأنت آيته تفوقينه جمالا وفتنة . . كلا ، لاتكونى آيته ولا شبيهته ما دام لك حاسداً . . ألا ترين أن كسائه أخضر سقيم ؟ فاخلعيه عنك وابرئى منه . . انها مالكتى ؛ انها محبوبتى . . آه لو علمت ما أنا منها . . .

إنها تتكلم . . ولكنها لاتقول شيئا . . ومافى ذلك . . ؟
فالعيون تتحدث . . وسأجيبها بلغة العيون . . .
ما أجسرنى فى هذا الظن . . فالحديث ليس لى . . .

فان نجمين فاتنين من نجوم السماء ، وقد شغلا ضرعا إلى عينيها أن تتلألأ مكانهما ، فى فلكيهما ، حتى يعودا . . وماذا . لو أن عينيها كانتا هنالك ، وكان النجمان مكان عينيها . . ؟ إذا لكسف ضياء خديها نور هذين النجمين ، كما يكسف ضوء النهار ضوء المصباح . .

ولو أن عينيها كانتا فى السماء

لأفاضتا على الكون نورا حتى ليغرد الطير حاسبا أن الفجر لاح . . . أنظر كيف تسند خدها إلى راحتها . . .

آه لو كنت قفازاً فى تلك اليد

فأمس ذلك الخد الأسيل . . .

(جولييت) : — آه . . .

(روميو) : — إنها تتكلم .

تكلم ثانية أيها الملاك البهى . .

فكأنك وأنت فى علاك تفيض على الليل سناء وبهاء

رسول سماوى ذو أجنحة

تتطلع اليه أعين البشر حائرة

وهو يسبق السحاب البطىء الكسول

سابحاً فوق صدر الجوزاء ...

(جوليت): — روميو ؟.. روميو ؟... لماذا أنت روميو ..؟

اهجر أباك وانكر اسمك

أما إذا لم تشأ فما عليك إلا أن تعاهدنى حباً

وأنا أتخلى عن أسرتى ولا أكون من آل كابيولت.

(روميو): — (جانباً) أأدعها تستمر، أم أقطع عليها الحديث

معلناً وجودى

(جوليت): — اسمك وحده عدوى

فأنت أنت وإن لم تكن من آل مونتاج

وما مونتاج ؟ فهو ليس يداً ولا قدماً ولا ذراعاً ولا

وجهاً ولا أى شيء آخر... خذ إسماً غير إسمك

وما قيمة الإسم ...؟

فما نسميه وردة سيبقى عاطراً تحت أى إسم آخر

وكذلك أنت ستبقى بكمالك المحبوب الذى هو لك.

ولو لم تكن روميو

دع ذلك الإسم فأهبك نفسى ..

(روميو): — وأنا آخذك عند كلمتك

سمنى الحب وأنا أتسمى من جديد
من اليوم لن أكون روميو

(جوليت) : — أى رجل أنت الذى تتخذ من الليل ستاراً
وتقف على خبيئة نفسى ؟؟

(روميو) : — لا أدرى بأى إسم أخبرك من أكون
فإسمى يا ملاكى العزيز بغيض إلى
لأنه عدو لك
ولو كان اسمى ورقة مكتوبة لمزقتها

(جوليت) : — لم تستمع أذناى من هذا الصوت إلا بضع
كلمات .
ومع ذلك فأنا أعرفه .
ألست روميو ومن آل مونتاج . . ؟

(روميو) : — لا هذا ولا ذاك يا ملاكى الجميل .
ما دمت لا تحبين هذا أو ذاك .

(جوليت) : — وكيف أتيت هنا خبرنى ولم ؟ . .
فالأسوار عالية صعبة التسلق .
ووجودك هنا معناه الموت

إذا اكتشفك أقاربى وهم يعرفون من أنت

(روميو): — بأجنحة الحب الخفيفة تخطيت هذه الأسوار
فالحب لا يصده حاجز صخرى .
الحب يجسر على كل شىء
ولذا لن يستطيع أقاربك معى شيئاً

(جوليت): — إذا رأوك قتلوك

(روميو): — إن سيوف لحظك لأشد فتكا من عشرات
السيوف من أسيافهم ، أن تبسمى لى فكل شىء
عندى يهون وان يكن عداوة ذويك

(جوليت): — لا أريد أن يعثروا عليك هنا

(روميو): — رداء الليل يخفينى عن عيونهم
امنحينى أنت حبك ثم ليجدوننى هنا
فخير لى أن تذهب حياتى ضحية كرههم
من أن يقتلنى عدم حبك

(جوليت): — ومن الذى أرشدك إلى هذا المكان . . ؟

(روميو): — الحب ، الحب هو الذى هدانى إليه
فلقد أعارنى النصح وأعرته البصر

إننى لست ملاحا ولـكننى لا أتوانى عن المخاطرة اليك
ولو كنت فى أقصى البحار وأناآها

(جوليت) : — لو لم يكن قناع الليل يحجب وجهى
لرأيت حمرة الخجل تكسو خدى
مما قلته لك الليلة
فما كان ينبغى أن تسمع هذا القول
أما وقد سمعت فقل لى أتحبنى . . ؟
أنا أعلم أنك ستقول نعم وسأصدق هذا القول منك
الا انك قد لا تكون صادقا إذا أقسمت
روميو ، عزيزى ، إن كنت تحبنى حقاً
فقل ذلك باخلاص
أما إذا كنت تظننى سهلة المنال
فسأغضب وأعرض عنك . . .
الحقيقة يا روميو أننى أهواك
وقد يجعلك ولعى هذا تعتقد أننى فتاة كسائر الفتيات
ولـكن ثق يا روميو أننى سأكون أصدق حباً ممن
يظهرون بمظهر الحيطة والدهاء

(روميو) : — معبودتى . . .

وحق هذا القمر المبارك

الذى يتوج هام هذه الأشجار بالفضة . . . . .

(جوليت) : — لاتقسم بالقمر المتقلب الذى يتخذ أشكالا متغيرة

كل يوم فأنا أخشى أن يكون حبك متغيراً

كتغير القمر . . .

(روميو) : — بم تريدنى أن أقسم . . . ؟

(جوليت) : — لا تقسم بشىء مطلقا . . .

فإذا لم يكن من القسم بد

فلتقسم بحياتك الغالية التى أقدسها كل التقديس

عند ذلك أومن بما تقول

(روميو) : — لو كان قلبى يا محبوبتى العزيزة . . . . . .

(جوليت) : — لا ، لا تقل شيئا . . . ولو أننى مبتهجة بك

إلا أننى لا أحب أن يتم هذا العهد الليلة

فهذا عمل طائش، مفاجىء ، لاحكمة فيه، خاطف كالبرق

الذى يومض ويختفى قبل أن يلتفت النظر إليه

طاب ليلك يا حبيبى

وليكن حبنا كالزهرة التى تتفتح حين يهب عليها نسيم
الصيف المنعش يوم نلتقى ثانية
طاب ليلك يا حبيبى ولتهنأ بما أنعم به من سلام ودعة

(روميو) : — أو تتركينى هكذا يا حبيبتى ؟

(جوليت) : — وأى شىء تريده الليلة . . ؟

(روميو) : — أن تعاهدينى على الحب والإخلاص

(جوليت) : — لقد عاهدتك قبل أن تطلب منى ذلك
وليتنى ما فعلت . . . .

(روميو) : — أوتستردينه يا حبيبتى ... ؟ ولم ... ؟

(جوليت) : — لا لشىء إلا لأمنحه لك ثانية
فحبى عميق كالبحر ، وشغفى بك لا حد له
أسمع صوتا ينادى
إلى الملتقى يا حبيبى
سأعود بعد قليل فلا تذهب

(تخرج جوليت)

(روميو) : — يا لليلة المباركة السعيدة ...

لكم أخشى والوقت ليل أن لا يكون كل ذلك سوى حلم
فإن ما أحس أحلى من أن يكون حقيقة

(تظهر جوليت ثانية)

(جوليت) : — روميو ، ثلاث كلمات فحسب ثم إلى الملتقى يا حبيبي
إن كنت فى حبك نبيلا وقصدك الزواج
فبلغ رسولى الذى سأرسله لك فى الغد
متى وأين تربطنا قدسية الزواج
وسأضع عند قدميك كل ما أمتلك
وأتبعك يا سيدى أينما شئت أن تذهب
وإن كان قصدك غير هذا
فإنى أتوسل إليك أن تكف عن حبك
وتدعنى وأحزانى.
انتظر رسولى فى الغد

(روميو) : — فلتبتهج يا قلب ...

(جوليت) : — طاب ليلك يا حبيبى (تخرج)

(روميو) : — طاب ليلك يا حبيبتى
ولكن ليلى لن يطيب

ما دمت عنى غائبة
فالحبيب يهرع للقاء حبيبه
مثلما يهرع الصبية منصرفين عن دروسهم
والحبيب يفترق عن حبيبته
فى خطى ثقيلة ... خطى التلميذ إلى المدرسة يعود
(تظهر جوليت فى أعلا)

(جوليت) : — هست ... روميو ... روميو ...
من لى بصوت صاحب الباز الصائد
لأغرى طيرى على العودة ...
لو كان للحب أن يعلن
بدل أن يتخفى ويستتر
ويمر كالنسيم الهادىء الرقيق لمزقت الفضاء بصوتى
فأبعث الصدى من مرقده
حتى يبح صوته مردداً « روميو حبيبى »

(روميو) : — إنها حبيبة الروح تنادينى
ما أحلى صوت المحبين بالليل
يترقرق فى الآذان كحلو النغم
عذباً شجياً

(جوليت) : — روميو . . . . .

(روميو) : — حبيبتى . . . . .

(جوليت) : — فى أى ساعة من الغد أبعث اليك

(روميو) : — فى الساعة التاسعة

(جوليت) : — إذا إلى الغد . . وما أبعد الغد . .

لقد غاب عن بالى لماذا دعوتك ثانية . . .

(روميو) : — فلأظل هنا حتى تتذكرى

(جوليت) : — وأنا سأظل ناسية حتى تظل واقفا . . .

فما أسعدنى بقربك

(روميو) : — وأنا سأظل واقفا حتى تظلى ناسية

ناسيا بيتى وكل شىء سواك

(جوليت) : — لقد كاد الصبح ينبثق

فبودى أن تروح

ولكن ليس بعيداً

وإنما كعصفور مدلل

فى يد صاحبته

ترخى له العنان

فيقفز مبتعداً . . . .

قفزة قفزة . . . . . .

كسجين مسكين . . .

يرسف فى قيوده . . . .

ثم بخيط حريرى تجذبه إليها

فهى من فرط حبها له

تغار عليه حتى من الحرية

(روميو) : — ليتنى كنت ذلك العصفور فى يدك

(جوليت) : — ليتك كنته يا حبيبى ؟

ولكننى أخشى عليك من نفسى

طاب ليلك . . طاب ليلك . .

إن فى الفراق مرارة حلوة

تجعلنى حتى الصباح أردد « طاب ليلك » (تخرج)

طاب ليلك

(روميو) : — فليرفرف عليك ملاك النوم

ولتمتلأ نفسك سلاما وأمنا

طاب ليلك طاب ليلك

أما أنا فإلى الأب الراعى

أقص عليه نبأى وألتمس نصحه (ختام)

ويفترق الحبيبان على عدة أن يتراسلا فى الصباح التالى، وما أن يشرق فجره الرطيب، ويعم نوره الأكوان، إلا ورسالة المحبة الوالهة بين يدى حبيبها، وما أسرع ما يلبيها قلب «روميو» الخفاق قبل لسانه، فيحدد لساحرته الفاتنة موعد اللقاء، ومكان الاجتماع: فى صومعة الأب الراعى، حيث يربطهما رباط الحياة الذى لا انفصام له رباط الزوجية المقدسة، ويطير «روميو» على أجنحة الشوق إلى الصومعة، ويفضى إلى الأب الراعى بمكنون صدره، سائلا إياه النصيحة ومستلهما من صائب رأيه السداد والتوفيق.. والأب لا يفتأ يحاور «روميو» عن نفسه، ويجادله فى حبه، فلا يجد منه إلا عزما موطدا، وإيمانا صادقا، يحمله على معاونته فى تحقيق أربه، عسى أن يكون هذا العهد الوثيق بين القلبين الشابين، فاتحة طيبة تبشر بالوئام والسلام بين أسرتى «مونتاج» و «كابيولت»... وتقبل «جوليت» فى براءة الملائكة يملأها الحب، ويفيض بها الجوى، فتسلم «روميو» زمام قلبها، وتعاهده على مذبح الراعى الأمين، أن تكون له الزوجة المخلصة الوفية أبد الدهر، ويبادلها «روميو» وعدا بوعد.

وتنصرف «جوليت» إلى قصرها بعد أن ربطتها «بروميو»

عروة الزواج المقدسة ، ويعود « روميو » فرحا طروباً ليعد عدة الزواج على أن يلقى حبيبته إذا جن الليل .... ولكن المقادير التى يسرت للحبيبين سبل اللقاء ، لم تكن قد كشفت بعد عما خبأته لهما من مفاجآت ، فإن « روميو » لم يكد يخطو راجعا ، حتى التقى بقريب « جولييت » الذى ثار ثائره عند ما شاهده لأول مرة فى قصر « آل كابيولت » وتحدى القريب « روميو » وأسرف فى تحديه ، و « روميو » يحاوره ويداوره ، لمكانه من محبوبة الفؤاد ، ولكن صديق «روميو» الحميم تأخذه العزة فينبرى له يبارزه فيقع على أسنة رمحه ، مضرجا بدمه ، فيثور ثائر «روميو» لما لقى صديقه فيشرع سيفه مدافعا عن الدم المسفوك ، ولا يلبث أن يقع قريب « جولييت » ومثير هذه الشحناء على سنان هذا الرمح جثة هامدة . ويتناقل أفراد الأسرتين خبر هذه المبارزة ، فيخفون إلى مكان الملحمة ، يتقارعون بالسيوف ، ويتبارزون بالرماح والأسنة ، مما يثير فتنة شعواء تقض مضجع سيد « فيرونا وحاكمها » فيقبل على الأثر ويأمر أعوانه بفض هذه الملاحم المهلكة ، ويقضى فى الأمر قضاءه الذى لا مرد له ، فيأمر بنفى « روميو » من المدينة فوراً فإذا وجد له أثر فى الصباح التالى قتل شر قتلة .. ووقع الحكم

على « روميو » وقوع الصاعقة ولكنه صمد له مادام فى الليل بقية للقاء الحبيبة ووداعها ...

ووصلت إلى جولييت أنباء مقتل ابن عمها فحزنت لفقده ولامت « روميو » على خطيئته ، ثم جاءتها أنباء نفى حبيبها فأنستها الفاجعة وهولها موت ابن عمها ، بل لقد أدمى قلبها الخبر حتى حملت على ابن عمها ، وطارت نفسها شعاعا ، ولم تدر ما هى فاعلة وظلت حائرة مقسمة الفؤاد إلى أن جاءها مع الليل حبيبها المشرد فاسكنت قلبها إلى صدره ، وفى قلب الليل البهيم تعاهدا من جديد على الوفاء وجمعت قلبيهما قبلة كانت قبلة الوداع

سافر «روميو» الى منفاه بعد ان وعده الأب الراعى أن يكون صلة بينه وبين الحبيبة ، يوافيه بأنبائها ، ويحمل اليها أخباره وأحواله ، وما ان رحل « روميو » حتى تقدم لخطبة « جولييت » فتى شاب يجمع الى ملاحة الفتوة عراقة الأصل وسعة الغنى ، ووافق الأب على الزواج وحدد له موعدا ، ووقعت « جولييت » المسكينة فى حيرة مربكة ، فهى تدافع عن نفسها حيناً ، وتدعى المرض حينا آخر ، وتستعين بأمها طورا ، وبدموعها طورا آخر ، ولكن هذا كله لم يكن ليعفيها من النزول على ما أراده له أبوها

من الزواج « بياريس » فلما ضاقت بها الحيل فزعت الى الأب الراعى تستلهمه العون والنصيحة ، فنصح لها أن تقبل وأعطاها دواء منوما تشربه ليلة زفافها ، فتبدو كأنها ميتة، فتخلص بذلك من أسر الزواج الجديد حتى يأتيها « روميو » فيأخذها فى أحضانه الى جنة الحب الوارفة — وكتب الأب « لروميو » بما اتفقا عليه وانفذ اليه رسائله — ونزلت « جولييت » عند رأى الكاهن ، ووريت ليلة زفافها فى القبر بين الحزن واللوعة لفراقها .

وأنباء السوء أبداً أسرع من أنباء الخير ، فقد سبقت اشاعة موتها رسائل الكاهن الى أذن « روميو » فخر مغشياً عليه ، واعد لنفسه سماً زعافا يشربه وأسرع الى مقبرة الحبيبة يقبلها قبلة أخيرة وجلس الى جدثها الفانى يغرقه بدموعه الحرى وأقبل « باريس » يطوف بقبر زوجته الذاهبة ، فالتقى « روميو » الواله فتبارزا وسقط « باريس » على رمح « روميو » قتيلا ، وشرب « روميو » السم الزعاف ونام نومته الأخيرة فى أحضان محبوبته — واستيقظت « جوليت » فهالها الموقف ورأت حبيبها والكاس فى يده فعلمت أنه راح ضحية السم من أجلها — ودت لو أن فى الكأس بقية وأقبلت على شفتى حبيبها تلثمها لعل السم ينتقل اليها — وسمعت

ضجة مقبلة فانتزعت خنجراً وأغمدته فى صدرها ، وهكذا وفى الحبيبان عهدهما وماتا على الحب ، كما عاشا له . . . وأقبل الكاهن يرى نهاية ما أعد فإذا به يفاجىء بخاتمة لم يكن يتوقعها ، فخر مغشيا عليه يبكى هذا الشباب الناضر ضيعته الاحقاد وطوحت به الأحن . . . وعاش الكاهن ليروى قصة الحبيبين ويلقنها للأجيال درسا للوفاء السرمدى والحب الخالص الأبدى .

(٣)

الملك لير King Lear

وتلك أخرى من رويات شكسبير ، وفواجعه المشهورة ، مثل فيها الشاعر عواطف متضاربة من رحمة الآباء ، وعقوق الأبناء . . .

« لير » ملك شيخ كان يحكم بريطانيا ودوقياتها ، فلما بلغ من العمر عتيا ، أحب أن يريح نفسه من أعباء الحكم ، فجمع إليه بناته الثلاث «جونرل Goneril » الكبرى ، و «ريجان Regan » الوسطى « وكورديليا Cordelia » الصغرى وسألهن جميعاً عن مبلغ حبهن له ، وقال لهن انه سيوزع عليهن ملكه بنسبة إفصاحهن عن محبته — وكانت « جونرل وريجان » ذاتى دهاء ورياء ، أما « كورديليا » فذات إخلاص ووفاء — عرفت الأختان الكبرى والوسطى ، كيف تصانعان أباهما حتى تفوزا بالملك العريض ، وإخاه

المبسوط ، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون .

فقالت « جونرل » إن حبك يا مولاى لن تستطيع الكلمات أن تفصح عن مكنونه ، فأنا أحبك أكثر من نور عينى ، بل أكثر من الحياة وأشد من الحرية .

وخدعت الكلمات المعسولة الأب السليم الطوية ، وظنها صادرة من القلب ، فأفاء عليها جزاء وفاقا ثلث ملكه لها ولزوجها ، تحكم فيه كما تحب وتختار .

وقالت « ريجان » إن ما قالته « جونرل » لن يبلغ فى قوته بعض ما أكنه لك من حب يا مولاى ، فإن كل نعيم فى الحياة زائل إلى جانب نعيم حبك أى أبى ومولاى .

وفى نشوة من سحر كلمات فتاته ، أنعم عليها الأب الرفيق ، بثلث ملكه الثانى لها ولزوجها ، ينعمان فيه رغداً .

ولما جاء دور الصغرى « كورديليا Cordelia » ، ولم تكن ذات حظ فى الرياء والمصانعة ، بل هى مثال البراءة والإخلاص ، لم تزين من القول ما زينت أختاها ، بل اكتفت فى التعبير عن حبها بما توحيه اليها الفطرة السليمة ، والواجب الأبوى ، « أحبك يا أبى قدر ما يفرضه على الواجب نحوك بلا زيادة أو نقصان » ، ولم

ترق هذه الإجابة البسيطة غير المنمقة فى نظر الأب ، فأمهلها علها تحسن قولا ، ولكنها أصرت على موقفها ؛ فحرمها من نصيبها فى الملك ، وقسمه بين أختيها .

خرجت « كورديليا » من المعركة المادية خاسرة ، ولكن الحسرة كانت تعصر قلبها المخلص على والدها الحبيب ، الذى غره الزيف ، وبهره البريق ، فسلم بيده ملكه وصولجانه ؛ لمن لا يحبه ولا يرحمه .

وتزوجت « كورديليا » من ملك فرنسا ، وذهبت معه لتجد فى حبه لها خير العوض عما فقدت ، وفى اخلاصه جزاء لوفائها .

وبقى « لير » بين بنتيه الكبرى والوسطى ، وظن أنه ملاق من حبهما وعطفهما فى شيخوخته ما ينسيه آلام الحكم ، ومتاعب الماضى . . أليس قد أغدق عليهما راضيا مختاراً ملكه وصولجانه .

اتفق « لير » على أن يقضى وحاشيته المؤلفة من مائة فارس ، أيامه الباقيات مناصفة بين بنتيه ؛ ولكنه ما كاد يتم أيامه الأولى عند « جونرل » حتى ضاقت به ذرعا ، وبدأت تتكشف نفسها الخبيثة على حقيقتها ، فأمعنت فى مضايقة حاشيته ، وأمرت خدمها بالاستهتار فى استجابة أوامره ، ولم تترك فى أحبولة عقوقها بابا

إلا طرقته فى اصطناع أسباب المضايقة ، والحجر على حرية الملك الشيخ ، فلما اعيته كل حيلة فى الاصلاح ، وعيل صبره ، شكا اليها الأمر ، فنهرته وأمرته ان يقلل من حاشيته ، بل وأن يتنازل عنها اكتفاء بخدمها وحشمها ، فذكرها بحبها له ، وعهدها معه ، فاشاحت بوجهها وزادها الرجاء صدوداً ، وأمرته أن يذهب الى أختها ، فقد ضاقت به ، وبمطالبه صدراً . . وظن الملك الشيخ ان «ريجان» ستكون أبر به من أختها ، وأحفظ لعهده منها ، ولكن ظنونه خابت ، ورجاءه تبخر ، فإنه ما كاد يصل إلى قصر «ريجان» حتى قوبل بالصدود والإنكار ، فلم يقابله أحد مع علمهم بمقدمه ، بل إن «ريجان» نفسها لم تهش لمقدمه ، ولم تسرع للقائه ، بل أمرت من أخبره أنها غائبة ، فلما ألح فى طلب لقائها جاءته متجهمة حانقة ، وسلقته بألسنة حداد ولامته على سوء تصرفه مع أختها ، وأمرته أن يعود أدراجه إلى أحضانها ، وأن ينزل عند رأيها ، وأن يخفف من غلوائه ، وأن يطرد حاشيته ، وجاءت « جونرل » وزوجها أثناء الحديث ، فاجتمعت الأختان على تعنيفه والتقليل من قيمته ، فركن إلى الشدة معهما ، فألحا فى الإنكار لحقه ، ومال إلى التوسل والبكاء ، فما لان لهما قلب ، ولا سالت دمعة ، بل زادهما ضعفه

استكبارا وإصرارا على أن يذل لأمرهما ، ويخضع لحكمهما — فهاجت فى الملك بقية من كبرياء محطمة ، فخرج من قصرهما ثائراً مهتاجا فى ليلة عاصفة من ليالى الشتاء التى لاترحم — وحاول رجاله تهدئة ثائره ، والتخفيف عنه ، فلم يأبه لقولهم ، وخرج هائماً على وجهه فى هذه العاصفة الهوجاء ، لا يصحبه إلا نديمه الذى أبى أن يترك سيده ومولاه فى أيام الشدة والبأساء ، بعد أن نعم معه فى أيام العز والرخاء .

وفيما يلى نقتبس من قصة « لير » ، منظر العاصفة بأكمله لنضع أمام القارىء صورة صادقة ، لما صور به شكسبير نفس هذا الشيخ الذى احتمل من عقوق بناته ما أنساه قسوة الطبيعة . .

الملك لير

المنظر — عاصفة هوجاء

(يدخل « لير » ومعه نديمه)

(لير) : — إعصفى أيتها الريح ودمرى بجناحيك ؛ ثورى واغضبى ، وأنت أيتها السيول والأمطار الهاطلة ، تدفقى حتى تغمرى بأمواجك الدور فتغرقيها ؛ وأنت أيتها النيران المتأججة المندلعة التى تسبق بألسنتها الصواعق . . . أحرقى شيبتى . . . وأنت أيتها الرعود العاصفة ، إسحقى الأرض واسحقى البشر ، واقتلى الأجنة فى بطون أمهاتها ، تلك الأجنة التى يخرج منها الإنسان الجحود .

(النديم) : — إن ماء القصر المقدس تحت سقف بيت دافىء خير من هذا المطر المنهمر فى الخارج . أدخل يا مولاى وسل بناتك الصفح فهذا ليل لا يرحم العاقل ولا المجنون

(لير) : — روح عن نفسك بهذا الصياح ، وأنت أيتها النار ، أرسلى حممك ، وأنت أيتها الأمطار ، أنزلى هاطل مائك ، لن أشكو منكم ، فأنتم لستم بناتى ؛ لن ألومك أيتها الطبيعة القاسية ، فلست من ورثته ملكى وأوليتة حنانى وعطفى ، ليس لى عليك من سلطان ، ولا لى فى عنقك دين ، فلترسلى إذن صواعقك على رأسى . . . أنا العجوز المهدم المنبوذ ، الذى لا حول له ولا سلطان ، سأحتملك — وإن كنت لا أستطيع أن أتهمك بالجحود والنكران ، فلن يمنعنى هذا من أن أحمل عليك كسوط عذاب فى يد بنتين غادرتين — ساعدتيهما بإرسال أهوالك على هذه الشيبة الفانية ، إيه ما أبشع هذا ...

(النديم) : — إن بيتاً يأوى الإنسان فى هذا الجو لهو كالدرع يحميه إن الرجل الذى يستعير لقلبه ما فى أصابع قدميه من رقة تنغص عيشه حبة من قمح مهما بلغت من دقة ، وما من امرأة جميلة إلا وتغير من ملامحها أمام المرآة لترى أى الأوضاع أصلح لظهورها .

(لير) : — سأكون أنموذجا للصبر ولن أقول شيئا

(كنت) : — من هناك ...

(النديم) : — عاقل ومجنون

(كنت) : — يا للقدر القاسى ، الذى يدفع بك يا مولاى للتعرض إلى مخاطر وأهوال هذا الليل البهيم ، إن الوحوش الضارية التى تتخذ من الليل جنة قد هرعت إلى كهوفها فزعا من هذا الهول ، إن أهوال هذه الليلة من نيران متأججة ، وحمم متساقطة ، ورعود قاصفة مهلكة ، وريح صرر عاتية ، وأمطار متدفقة جائحة ، لم تصادفنى فى حياتى قبل هذا اليوم ولم أسمع بمثلها ، إنها فوق قوة البشر ، ولن يستطيع إنسان كائنا من كان احتمالها

(لير) : — دع الآلهة القوية ، التى تثير هذه الحرب الضروس فوق رؤوسنا ، تستخرج من بين البشر أعداءها ، فلترتعد فرقاً أيها التعس الذى يطوى بين جنبيه أسرار جرائم لم تكتشف بعد ولم تصل إليها يد العدالة ، إخف يديك الداميتين أيها المخادع ، وكذلك أنت

يامدعى الفضيلة، والفضيلة منك براء ، ولتقطع أوصالك رعباً أيها النذل الخئون، يامن اتخذت الصداقة ستاراً لجرائمك وآثامك ضد البشر . أيتها الجرائم الثاوية فى الصدور ، مزقى تلك الحجب التى تخفيك وابرزى للعيان ، واستصرخى هذه النذر الرحمة ! إنى رجل قد طغت أرزاؤه على آثامه ..

(كنت) : — وا أسفاه يا مولاى ، أتمشى هكذا عارى الرأس ، إن بالقرب من هذا المكان كوخاً يمكننا أن نلجأ إليه من هذه العاصفة ، فلتستريحا هناك بينما أعود إلى هذا البيت الجاحد ، الذى بز فى الجحود أحجاره صلابة وقسوة ، لأفرض على أهله أدب المجاملة الذى تجردوا منه .. هذا البيت الذى منعت من دخوله منذ لحظة ، وأنا أسأل عنكما.

(لير) : ـ لقد بدأت أستعيد الحس .. هيا ياولدى .. ما بك ؟ أيؤذيك البرد ؟ نعم ، فأنا أحس قسوته ، أين هذا الكوخ يا صديق ؟ إن نظرتنا إلى الأشياء تتغير وتتبدل حسب حاجتنا اليها ، فالشيء الذى نزدريه فى

بعض الأحيان قد يكون ذا قيمة فى وقت آخر ؛ هيا أرنا الطريق إلى هذا الكوخ ! إنى وإن كنت مفعم القلب حزينه فلا زلت أجد فى نفسى متسعا للإشفاق عليك يا ولدى .

(النديم) : — هيه هيه أيها الريح والمطر ؛ إن من قل عقله ، أو ندر وجب أن يقنع بما يأتى به القدر فكل يوم ينزل المطر ...

(لير) : — صدقت يا ولدى هيا بنا إلى الكوخ

(يخرج لير وكنت ويبقى النديم وحده)

(النديم) . — سأقص نبوءة قبل أن أنصرف ؛ عند ما تصبح مواعظ القسس كثيرة الكلام قليلة الفكر ، وعند ما يغش صناع النبيذ نبيذهم بالماء ، وعندما يضرب النبلاء المثل فلا يغرقون فى الدين ، وعند ما يبطل حرق الكفار ويبدأ حرق العشاق ، وعندما يصبح كل حكم فى القانون عادلا ؛ وعند ما يخلص السادة من الدين وينمحى الفقر بين الفرسان ، وعند ما تقطع ألسنة النمامين ويبطل اختلاط النشالين بالجموع ؛ عند ذاك

تقوم قيامة العالم ، ويأتى الوقت الذى تسير الناس فيه على أرجلهم . (يخرج)

(المنظر أمام الكوخ) يدخل لير وكنت والنديم

(كنت) . — هذا هو الكوخ يا مولاى ، أدخل فإن قسوة هذا الليل ليس فى مقدور البشر احتمالها .

(لير) . — دعونى وحدى . .

(كنت) : — مولاى لا بد أن تدخل هنا .

(لير) : — وهل تحطم العاصفة صدرى ؟

(كنت) : — فلتحطم صدرى أنا ، تقدم يامولاى

(لير) . — أتظن هذه العاصفة ستوهن منا العظم وترق منا الجلد ، هى كذلك بالنسبة لك على الأقل ، ولكن من يصيبه المرض العضال لا يحس وطأة غيره من ألم ، فأنت قد تهرب من الدب ولكن اذا لم يكن أمامك سوى البحر المتلاطم الأمواج فليس إذاً من من ملاقاة الدب حيلة ، إن العقل الخلى يزيد الجسم حساسية ورقة ، وأن العاصفة التى تضطرب فى رأسى قد أضعفت كل حواسى فلم أعد أشعر بما حولى . لم أعد أشعر إلا بهذا الجحود ، جحود بناتى وفلذة كبدى

أليس هذا الجحود أشبه بنكران الفم للجميل فيعض اليد التى أطعمته ، ولكنى سأنتقم وسيكون انتقامى مراً . . . . . لا لا ـ لا داعى للبكاء ، كفى بكاء . . . اتطردانى فى مثل هذه الليلة . . أنتما بنتاى . . هات أيتها الريح ما عندك فسأحتملك . أفى مثل هذه الليلة تطردان أباكما الكهل . . أباكما الرحيم الذى أعطاكما كل شىء ، أوه هذا يكفى ، ولندع ذلك الحديث فإنى أخشى على نفسى من الجنون

(كنت) . ـ مولاى أتوسل اليك أن تدخل

(لير) . ـ دعنى واذهب أنت وخذ راحتك ، إن هذه العاصفة ستنسينى آلاما أشد على نفسى من وقعها ، ومع ذلك فسأدخل . .

(لير) : ـ (إلى النديم) أدخل يا ولدى ، أيها الفقير الذى لا مأوى له ، هيه . . أدخل سأصلى ثم أنام .

(يدخل النديم)

أيها التعساء الذين أنهكهم العرى فاتخذوا تحت هذه العواصف مأواهم ، كيف تحتملون هذا الهول وهل تدفع عنكم قسوة هذا الليل العاصف ملابسكم

المهلهلة ، وأثمالكم البالية ، وأجسامكم الناحلة التى أنهكها الجوع ، وأضنتها الفاقة ، لم أكن أعنى بكم أيام عزى وجلالى ، أما الآن وقد عرضت نفسى لما يتعرض له هؤلاء التعساء وأحسست إحساسهم فسأعمل على نصرتهم وأحض الناس على رحمتهم .

(يدخل)

وما أن يدخل « لير » الخباء حتى يقيم عليه رجاله حرساً ، كى لا يخرج ويتعرض لقسوة الزمهرير ، ويسرع بعضهم إلى « كورديليا » ملكة فرنسا يبلغها ما صار اليه حال أبيها ، فتأخذها الشفقة عليه ، ويغلبها الحنين والجزع ، وتنسكب دموعها مدرارا ، وتسرع بجيشها لنجدة أبيها والانتقام من أختيها . . . وتلتقى « كورديليا » بالأب هائماً على وجهه بين الحقول ، قد أذهب الهول عقله ، فتأخذه بالرفق ، وتسلمه إلى أطبائها يعنون به . والأب فى خباله لا يدرى ما يقول ، فهو تارة يركع عند أقدام « كورديليا » طالبا الصفح والغفران ، وطوراً يبكى ويضحك خوف أن يكون ما يراه خيالا ، هيأه له عقله الضائع ، ورشده المفقود ، وما يزال به الأطباء حتى يشفى ، وتقبله « كورديليا » قبلة كلها الحنو

لتنسيه آلامه . . وتذهب «كورديليا» لحرب أختيها انتقاما لأبيها فتموت فى السجن ، بعد أن تنهزم قواتها ؛ ولا يلبث «لير» إلا قليلا حتى يلحق بابنته ، ولكنه قبل أن يموت تنتقم له العناية الإلهية ، من بنتيه العاقتين ، فتقتل إحداهما الأخرى بالسم ، لتزيحها عن طريق حب آثم ، ولكن قصة «جونرل» ومؤامراتها لا تخفى على زوجها ، فيقبض عليها ويودعها السجن حيث تنتهى حياتها بيدها فى ثورة من الغضب تتملكها على أثر فشلها فى الحب وهكذا أبت العناية الإلهية إلا أن تنتهى حياة العاقتين ، نهاية هى أقل ما يستحقان من تعذيب وتنكيل .

(٤)

عطيل Othello

« عطيل » مغربى أسود، ذو عقل راجح، ولسان فصيح ذرب، قائد حنكته التجارب ، اشتهر فى حربه ضد الأتراك ، لصالح « دوقية البندقية » Venice وعلا ذكره ، وقلده الدوق مراتب الشرف ، ومنحه الأوسمة والنياشين .

وكان « عطيل » هذا صديقا للسنيور « برابنشيو » أحد شيوخ البندقية ، يتردد على بيته ، فيجد السنيور فى حديثه طلاوة ، وفى صحبته غبطة وبهجة . .

وكان للسنيور بنت وحيدة يحبها الحب كله ، ويؤثرها الإيثار كله ، تدعى « ديدمونة » تتزاحم على بابها الخطاب، فتردهم خائبين ويتنافس فى الفوز بها الشبان من أهل الوجاهة والثروة ، فتدل عليهم ، وتثير فيهم التنافس والمغالاة فى مهرها ، وعلى حين فجأة علقت

« ديدمونة » بعطيل حباً ، وتيمت به غراما ، أعجبت بفروسيته ، وسحرت ببلاغته ، وأغوتها قصصه وأسفاره ، فسلمت له عنانها ، وارتضته لنفسها بعلا ، ولم تأبه لسواد بشرته ، بل رأت وجهه فى فى عقله وكماله ، وعشقت روحه الشفافة ، وبطولته الخارقة ، وبنى « عطيل » بديدمونة سراً ، وارتبط معها برباط الزواج المقدس ، واحتفظ المحبان بالخبر فى صدريهما ، ولكنه ما لبث أن وصل أسماع الأب ، فثار وشكا المغربى لمجلس القضاء فى البندقية ، متهماً إياه باستعمال السحر فى إغواء إبنته ، وحملها على زواجه بدون رضى أبيها ...

وقبل أن يدعى عطيل للمحاكمة ، جد للبندقية من الأحداث فى الخارج ما دعا إلى الاستعانة بعطيل فى حرب شنها الأتراك على قبرص ، فدعى عطيل ليرد على الأمرين معا ، وأعطيت للسنيور « برابنشيو » كل الحرية فى توجيه اتهامه ، ولكن عطيل رد فى بساطة وإخلاص ، ان سحره كان قصصه البارع ، وكلماته الحلوة ، وان شعوذته كانت انباء فروسيته ، ومعارك نضاله ، وان قلب ديدمونة واذنيها قد ملكتهم نشوة الحديث ، واخضعتهم لسلطانه ، فهامت به ، وبادلته حبا بحب ، وصادقته ديدمونة على

كل كلمة قالها السنيور « باربنشيو » إلا أن يبارك حبهما المقدس وزواجهما المتين — وقبل عطيل المهمة التى ألقيت على عاتقه ، وأعد عدته للسفر إلى قبرص ، وصحب زوجته معه ، وصحب معه « أياجو » وهناك وجد صديقه « كاشيو » رسول هواه القديم بينه وبين « ديدمونة » — وخلت رتبة فى جيش « عطيل » ، فرأى أن يرقى إليها « كاشيو » ، فأحفظ هذا « أياجو » الضابط القديم وظن أن « عطيل » يؤثر « كاشيو » عليه ، وهو أقدم منه ، وثار ثائره لما توهمه من أن « عطيل » يظهر الود والمحبة لزوجه « إميليا » فأقسم لينتقمن ، وأعمل فكره وعقله فى حبك مؤامرة دنيئة . يكون ضحيتها « عطيل » و « ديدمونة » و « كاشيو » جميعاً ليخلو له الجو . . .

وكان « أياجو » بطبعه دساساً عريقاً فى الدس ، فحاك شباكه بتفنن وبراعة ، ورمى بها فى طريق « عطيل » النبيل ، حتى إذا وقع فى الأحبولة ، ضيق عليه الخناق حتى أخرجه عن رشاده ، وهيأ له القبيح حسناً ، والحسن قبيحاً ...

اتخذ « أياجو » طريقه إلى قلب « عطيل » باستثارة غيرته ، وإيهامه أن زوجه المخلصة « ديدمونة » تستغفله وتستغل محبته

وصراحته، وتبادل «كاشيو» المحبة، وتمكنه من نفسها فى غيبة «عطيل» ... واتخذ لمد أحابيله طرقا شيطانية، فبدأ بالإيقاع بكاشيو فى ليلة حراسته، وسقاه الخمر، وسلط عليه من أسخطه حتى حمله على مبارزته، وأثارت المبارزة شغباً استيقظ على صخبه القائد «عطيل»، فعاقب «كاشيو» بأن نحاه عن عمله ...

وأفرخت مكيدة «أياجو»، فاصطنع المودة «لكاشيو» والنصح له، فزين له أن يطرق باب «ديدمونة» لتتوسط له فى الصلح مع «عطيل»، وأن يلازمها فى غدواتها وروحاتها مستعطفاً حتى يلين قلبها، فتحمل «عطيل» على الصفح عنه، وإعادته إلى مركزه، ومن ناحية أخرى استغل معرفته بما يقوم به «كاشيو»، وبما يدور بينه وبين «ديدمونة» من حديث فى استثارة غيرة «عطيل» وتنبيهه كصديق إلى الخطر من تردد «كاسيو» على بيته ...

وما زال «أياجو» بعطيل ينصحه ويحذره، حتى اختلط عقله، وظن الوهم حقيقة فثار ثائره، وطالبه بالدليل، فمد له الشيطان فى حبل الغواية، وأسعفته زوجته «أميليا» بمنديل كان «عطيل» قد أهداه إلى «ديدمونة» ليلة زواجها، وسرعان ما اقتنصه النمام وقدمه لعطيل كدليل على الخطيئة، وسرعان ما حبك قصصاً

وحوادث غرامية بين امرأة أخرى وبين « كاشيو »، وأسمعها « عطيل » على أنها أحاديث غرام بين « ديدمونة » و « كاشيو »، فثارت ثورته، وهدر كالفحل، فقد زمام عقله، واستعرت نيران الغيرة بين جوانبه، فأقبل على « ديدمونة » العفة الطاهرة، يطالبها بالمنديل وينعتها بكل قبيح مرذول من الصفات، ولما لم تستطع له دفعاً، هجم عليها فخنقها بيديه، فذهبت روحها إلى خالقها تشكو ظلم الإنسان، ولكن العناية الإلهية حطمت نفس عطيل، وهدت كيانه، فقضى على نفسه بالموت بعد أن عرف حقيقة ما أوقعه فيه اضطراب ذهنه، من تأثير سم « أياجو » اللئام ... وقضت على « أياجو » الدساس بالموت، جزاء وفاقا لما حاكته يداه من إثم وعدوان . . .

وفيما يلي منظر من رواية « عطيل »، أعمل فيه « أياجو » كل حيلة لإقناع « عطيل » بمسلك زوجه المريب، وعلاقتها الآثمة مع « كاشيو »، وفيه تبدو براعة شكسبير فى تصوير الفتنة والغفلة التى تعترى العظماء أحياناً فتكون سبباً فى حتفهم ...

فصل من عطيل

(عطيل) : — إيه أيتها الشيطانة الفاتنة ، إن الهلاك يكتسح روحى . ولكنى أحبك ، وعند ما لا أحبك ، تكن الدنيا لدى اضطرابا وفوضى

(أياجو) : — فديت يا مولاى

(عطيل) : — ماذا تقول يا أياجو

(أياجو) : — أكان كاسيو يعلم شيئاً عن هواك ، حينما كنت تبادل مولاتى الصبابة والهيام ؟ !

(عطيل) : — بلى كان يدرك ذلك . ولكن علام هذا السؤال

(أياجو) : — لا شىء أكثر من أننى أريد أن أقنع خواطرى العابرة .

(عطيل) : — وفيم خواطرك هذه يا أياجو

(أياجو) : — لست أعتقد أنه كان متصلا بها

(عطيل) : — بلى ! ! وكان الصلة بيننا

(أياجو) : — حقـــاً ؟

(عطيل) : — حقاً . نعم حقاً . أترى أى شىء فى ذلك . أليس هو بالرجل الشريف ؟ ؟

(أياجو) : — شريف . يا مولاى

(عطيل) : — شريف ، نعم شريف

(أياجو) : — لا أعلم شيئا آخر

(عطيل) : — ماذا تظن ؟ ؟

(أياجو) : — أظن يا مولاى

(عطيل) : أظن يامولاى ؟ إنه وأيم الله يردد أقوالى . حتى كأن هنالك غولا يجثم فى خواطره . فلا يستطيع من هولها أن يبوح بها . أتقصد يا هـذا أمراً معيناً ؟ ؟ فقد سمعتك تقول الآن حيث ترك كاسيو زوجى ، إنك لا ترتاح لذلك ، فما الذى لا ترتاح إليـه ؟ ؟ وحين أخبرتك أنه كان الصلة بيننا أيام وجدى وغرامى ، هتفت أحقاً ذلك ؟ ؟ ثم تجهمت أساريرك كأنك تخفى فى نفسك أمراً مريعاً ، فإن كنت لى محباً مخلصا ، فانفض إلىّ دخيلة نفسك .

(أياجو) : ــ مولاى . إنك تعلم أننى لك المحب المخلص

(عطيل) : ــ أعتقد ذلك . وأعلم أنك جم المودة والصدق . وأنك تزن كلماتك قبل أن تفوه بها . وعلى هذا ، فترددك وأناتك فى حديثك ، تثير فى نفسى القلق والاضطراب ، فالتلميح عند السوقى الأجوف ، عادته وجبلته ، ولكنه عند الرجل الكريم المهذب ، سر دفين فى أعماق قلب ، يصعب على العواطف أن تكبح جماحه . وتكشف سره .

(أياجو) : ــ إن يك ذلك عن كاشيو ، فإنى أقسم أنه رجل شريف

(عطيل) : ــ وأنى أعتقد ذلك

(أياجو) : ــ الناس يا مولاى ، يجب أن يكون مخبرهم كما تكون سريرتهم ، إذ لا ينبغى تضليل الناس

(عطيل) : ــ هنالك بعض من الناس ، يجب أن يكون مظهرهم كمخبرهم .

(أياجو) : إذاً احسب يامولاى ، أن كاشيو رجل شريف

(عطيل) : ــ أجل ، أجل ، إنك تعنى أمراً ما ، فبحق عليك ، ألا ما بحت لى بما تكنه فى نفسك ، ما دمت تلهج

بهذه الإشارات ، فحدثنى إذن بأسوأ مايجول بنفسك وبأسوأ ما يكون التعبير .

(أياجو) : — حسنا يا مولاى ، ولكن عفواً ، فإنى وإن كنت رهن إشارتك فى كل ما تأمر به ، فما أنا بمستطيع ان اقول ما يمتنع حتى العبيد عن قوله ، ومالك تصف خواطرى بالضغة والزيف ؟ فأى مكان فى الوجود لا يتسرب اليه الدنس ؟! ومن ذا الذى أوتى قلبا طهوراً لا يتغلغل فيه الرجس ويظل يكمن فيه كأنه فى بلاط الملوك يجاور الرفيع من الهواجس والخطرات

(عطيل) : — إنك إذا علمت شيئا يسوءنى ، وامسكت عن الإفضاء به إلى ، فأنت يا اياجو كالمتآمر ضدى

(أياجو) : — استميحك العذر يامولاى ، فربما اكون مخطئا فى هواجسى وظنونى ، وإنى اعترف اننى مجبول على التفكير فى وهم الأخطاء ، وطالما خلقت من خيالات الظنون أخطاء لا ظل لها من الحقيقة ، فلا تقم لهذا الأمر وزنا ، ولا تخلق لنفسك متاعب من وراء من لم يتثبت من هواجسه وملاحظاته ، فليس من الخير

اليك ، ولا من هدوء نفسك فى شىء ، كما ليس مما يخلق برجولتى وشرفى وسدادى فى شىء ، ان أجلو لك السر الدفين .

(عطيل) : — ماذا تعنى بذلك ؟؟

(اياجو) : — إن السمعة الحسنة للرجل والمرأة يا مولاى ، هى أثمن ما تتحلى به نفوسهم ، فمن يسرقنى نقودى ، لا يسرق شيئا ، فهى لى ، وهى له ، وهى نهب مشاع للجميع . ولكن الذى ينتزع منى سمعتى الطيبة ، يسرق منى ما لا يغنيه ، وما يجعلنى أبأس العالمين طراً .

(عطيل) : — اقسم غير حانث لأقفن على خواطرك هذه ! !

(اياجو) : — إذا كان قلبى مكشوفا بين يديك ، فلن تستطيع أن تدرك خواطرى فى هذا الأمر ، فكيف بك وهو بين حنايا ضلوعى

(عطيل) . — آه . . . . .

(اياجو) . — حذار يا مولاى من الغيرة فهى ذلك الوحش الضارى ، ذو العيون الخضراء الذى يسخر من فريسته ، ويثير فيها كل يوم ضروبا من الشك ، ويلهو بشجوها

المتزايد ، فالذين يعلمون خيانة ازواجهم ولا يحركون ساكنا ، سعداء حقا ، إذا قورنوا بمن يتعلقون بحبهن ، ويتشككون فى إخلاصهن ، وتمر بهم فترات من الشقاء ، ولا يصلون فى نهاية ذلك إلى دليل حاسم

(عطيل) . — يا للشقاء ...

(اياجو) . — إن الفقر إذا صحبته القناعة فهو الغنى الذى لا حد له . ولكن الغنى الذى يخشى الفقر ، هو الفقير المدقع ، حمى الله ذوى من شر الغيرة .

(عطيل) : — لم هذا ؟ ؟ لم كل هذا ؟ ؟ أو تحسبنى أظل طول حياتى غيوراً ؟ ؟ أ أخلق دوما شكوكا جديدة ؟ ؟ كلا ، كلا ، إذا شككت يوما فلا بد من أن أضع حداً لذلك ، ولا تعدنى أكثر من حيوان طليق ، إذا الفيتنى أحصر خواطرى فيما لا طائل فيه ، مما رأيته فى سيرة زوجى ، وإنك لن تثير غيرتى إذا قلت ، بأن زوجى جميلة ، مكفولة الرغائب ، تحب الأنس ، صريحة فى حديثها ، تغنى ، وتلهو ، وترقص ، فإن كانت المرأة صالحة زادتها هاته الشمائل كمالا ، ولن

أعتقد بأنها تخونني ، لأنني قليل المحاسن ، فقير مما يبهر العيون اللواحظ ، كلا ، كلا ، يا أياجو . يجب أن أتلمس الدليل قبل أن أتشكك . فاذا قام الدليل ، لم يبق غير أن انصرف عن حبي ، أو أتمسك بأهداب الغيرة .

(اياجو) : -- إنني سعيد بذلك . فالآن أستطيع أن اظهر لك حبي الذي اكنه لك ، وان اقوم بواجبي نحوك بروح الصراحة المطلقة . فواجب الوفاء يحتم على أن أجابهك بالحقيقة ، إنني لا أملك الدليل ، ولكن راقب زوجك ولاحظها إذا حضر كاشيو ، وافتح عينيك ، وكن كأنك لست بالغائر ، ولا بالغافل عما يجرى حولك ، ويا ويح نفسك السمحة ، تساء وتجرح من أجل فضلها وكرمها ، وأنت لا تعلم طبيعة نسائنا ، فهن في «فينيس» يشهدن الله على سيئاتهن ، ويخفين خيانتهن عن أزواجهن ولا يتركن سيئة إلا ويقترفنها ، فلا يعلم بذلك إلا الله

(عطيل) : -- أتقول ذلك ؟ ؟

(أياجو) : — لقد غررت بوالدها حين تزوجتك، وحين خافت نظراتك ، فأحببتهن لذلك حباً جماً .

(عطيل) : — أو هكذا صنعت ؟ ؟

(أياجو) : — أعميت عن ذلك ، أتحسبها وهى صغيرة غريرة ، تظهر بهذا المظهر أمام أبيها الغامض النظرات . والذى حسب أنها تزوجتك بفعل السحر . أنا الملوم على ذلك، فاصفح يامولاى عمن تربطه بك أواصر الحب والولاء .

(عطيل) : — إننى مدين لك بالحمد إلى الأبد.

(أياجو) : — إنى أرى هذا الأمر قد بلبل آراءك .

(عطيل) : — لا شيء من ذلك ، كلا ، لا شيء من ذلك .

(أياجو) : — أخشى أن يكون ذلك، وأرجو أن تعتبر أن كلامى انما أملاه حبى لك . ولكنى أراك تأثرت ، وآمل أن لا تخال حديثى إليك أكثر من شك لا يؤدى إلى نتائج سيئة .

(عطيل) : — لن أفعل ذلك .

(أياجو) : — إن فعلت ذلك ، فإن كلامى يامولاى قد يؤدى إلى

نتائج ما قصدت إليها ، فإن كاشيو صديق الحميم ، إننى أراك تأثرت يا مولاى .

(عطيل) : — لم أتأثر كثيراً ، فإنى أعتقد أن ديدمونة شريفة

(أياجو) . — دام لها ذلك الشرف ، ودام لك ذلك الظن .

(عطيل) . — أو يمكن أن تتغير طبيعتها ، فتخون ، وتجنى على نفسها ، وعلى

(أياجو) . — هذه هى النقطة ، وأنا أكن جريئا معك فلن أتحدث كثيراً عن عروض الزواج التى عرضت عليها من بنى جنسها ، وبلادها ، ولونها ، ومكانتها ، حيث ترى طبائع الأشياء تتجه نحو ذلك . وقد يشم الإنسان روائح كريهة من هذه النزوات الجامحة ، فيعتقدها غير طبيعية . وعذراً ، فلست أتحدث عنها بالذات ، ولو أنى أخشى أن تكون حتى فى رغبتها وتقديرها ، لا تضعك فى مكانة بنى جنسها ولعلها فى ذلك تكون نادمة متحسرة .

(عطيل) . — وداعا الآن ، فإن علمت شيئا فاخبرنى به ، واترك زوجك تراقبها . إذهب ودعنى يا أياجو .

(أياجو) . — مولاى ، إنى أستأذنك فى الذهاب

(عطيل) . — لم تزوجت ؟ ؟ هذا المخلوق للشريف يرى بلاشك ويعلم الجم من أمرها أكثر مما صرح به .

(أياجو) . — مولاى ، أرجو أن لا تعير هذه المسألة بالا ، دعها للزمن . ومن الخير أن يعاد كاشيو إلى منصبه ، وسيشغله دون ريب بكفاءته العظيمة وإن أرجات أمر إرجاعه إلى مدة ما . فإنك ستفهم نفسيته وأساليبه ولاحظ إذا كانت زوجك تلح عليك فى إرجاعه ، فإنك ستدرك الكثير من وراء ذلك ، أما فى الوقت الراهن ، فإنى شديد المخاوف ، ولى الحق فى ذلك ، ولكن أرجو أن تعتبرها بريئة

(عطيل) . — لا تخش على ، فإنى سأكبح جماحى . وأتمسك بأهداب الصبر .

(أياجو) . — إنى أستميحك العذر ، وأستأذنك مرة أخرى فى الذهاب

(عطيل) . — إن هذا الشخص عظيم الإخلاص ، عارف بسجايا الناس ، متعمق فى فهم غرائز النفوس البشرية ، فإن

اتضحت لى خيانتهـــا وغدرها ، تركتها تركة من لا رجعة بعدها

لعلها خانتنى وغدرت بى ، لأنى أسمر ، ولأنى لا أحسن أحاديث الظرفاء المنمقة ، أو لأنى تقدمت بى الأيام . كلا لست الشيخ المتهدم ، ولكن ترى أيهم ذلك ؟ ؟

لقد ثلمت عرضى . وأن راحتى مما أعانيه ، فى أن أمقتها وأكرهها من أعماق قلبى .

ألا سحقاً للزواج . فنحن نحسب أن هاته المخلوقات الناعمات ، يهبننا أنفسهن وقلوبهن ، ولا يفكرن فى صبواتهن .

وودت لو أنى كنت حية تعيش فى قاع سجن سحيق دون أن تكون لى زوج يشاركنى فيها الآخرون . ولكن هكذا نكبة العظماء ، وهم وسواد الناس فى هذه الكارثة سواء بسواء . هذا هو القضاء المقرن . الذى لا مرد منه ، انه كالموت يلاحقنا ، ونحن أجنة فى بطون أمهاتنا .

(٥)

ترويض الشرود

Taming of the Shrew

السنيور « بابتستا » أب كريم ، له بنتان ، إحداهما صيغت من الحنان والبر تدعى « بيانكا » والأخرى قدت من الصخر ، فهى عاتية متمردة تسمى «كاترينا» .. كلتاهما فى سن الزواج ، «كاترينا» تكبر « بيانكا » بسنوات ... الأب يؤثر بعطفه وحنانه بيانكا ، لضعفها أمام تمرد أختها الكبرى «كاترينا» ... « كاترينا » لا تترفق بأختها الصغرى ، بل تثور ضدها لأتفه الأسباب ، تضربها غيرة منها وحسداً لكثرة خطابها ، والأب لا يريد أن يزوج الصغرى قبل أن يهيء السبيل لزواج الكبرى ، وهو لذلك موزع بين عاطفتين ، عاطفة محبته لإبنته الصغرى ، وعاطفة الحدب على ابنته الكبرى ، التى ينفر منها حتى الأقارب ، لسلاطة لسانها وشدة كبريائها ...

وأخيراً يفتح الباب ، لينفذ منه شاب له عزمة من عزمات الجن ، يستهويه هذا الشرود ، ويحذبه هـــذا الصلف ، فيقبل «بتروشيو» Petruchio على خطبة كاترينا ، غير هياب ولا وجل... وبصبر وجلد يتمكن من إنزالها على مشيئته ، ويحملها قصراً على قبول خطبته ، ويريها من صنوف الحرمان ما يرد لها صوابها ؛ ويعيد لها اتزانها ، فتصبح زوجة مثالية تنصح لبنات جنسها ، وتضع لهن دستوراً لمعاملة الأزواج ، ونحن نقتطف من القصة حديث خطبتها ، وما دار بينها وبين « بتروشيو » من حوار ، ثم ننتهى بنصيحتها للزوجات ...

ترويض الشرود

(المنظر) — غرفة فى بيت السنيور « بابتستا » فى بادوا

تدخل (الأختان) كاترينا وبيانكا

(بيانكا) : — لا تسيء إلىّ يا أختاه ولا تسيء إلى نفسك ، إنى لأبغض أن تستبدى بى كأننى بعض الأماء أو العبيد ، أما هذه الملابس فاطلقى يدى وأنا أخلعها لك واحدة واحدة حتى ألصقها بالبدن ، بل وأفعل كل ماتريدين فأنا أدرك ما يجب على نحو من هم أكبر منى سناً .

(كاترينا) : — دعينا من الملابس وخبرينى أى خطابك أحب إلى نفسك ولا تكذبى !

(بيانكا) : ــ صدقيني يا أختاه إن قلت إنى لم ألق بعد الرجل الذى تهواه نفسى .

(كاترينا) : ــ بل تكذبين ــ أليس « هورتنسيو » أقربهم إلى قلبك ؟ ؟

(بيانكا) : ــ إن كنت له محبة فهو لك ، وأقسم لك صادقة أن أكون أول من يساعدك على الفوز به .

(كاترينا) : ــ هه إذن أنت ترغبين فى الثراء و « جروميو » خير من يحقق آمالك ؟

(بيانكا) : ــ أمن أجله تحسدينني ؟ إنك لا شك ساخرة وقد سخرت منى كل هذا الوقت ، اطلق يدى .

(كاترينا) : ــ سخرية ؟ ! مادام الأمر كذلك فخذى (تضربها)

(يدخل بابتستا)

(بابتستا) : ــ ما هذا يافتاة ، وما هذا العدوان ــ قفى جانباً يا بيانكا ، مسكينة إنها تبكى ، إذهبى يا صغيرتى إلى عملك ولا تتعرضى لها (إلى كاترينا) يا للعار أيتها الشيطانة لم تسيئين اليها وما أساءت اليك ...

(كاترينا) : — إنها تسيئنى بصمتها ولسوف أنتقم منها

(تعدو فى أثر بيانكا)

(بابتستا) . — وأمامى ! أدخلى يابيانكا

(تخرج بيانكا)

(كاترينا) . — أنا أعرف أنك تضيق بى ولا تحتملنى ، هى فتاتك المحببة ومن أجلها تفعل كل شىء . . . لا بد أن يكون لها زوج ، أما أنا فأرقص حافية القدمين يوم زفافها وأذهب إلى الجحيم فى سبيل حبك لها . دعنى فانا لا أريد منك حديثا — سأذهب وأقطع نياط قلبى بكاء حتى تحين فرصة للإنتقام

(تخرج)

(بابتستا) . — هل ابتلى رجل بما ابتليت به ... من هناك ؟

(يدخل جروميو ومعه لوسنشيو مرتديا ملابس بالية ويدخل بتروشيو وهرتنسيو كمعلم موسيقى)

(جروميو) . — عم صباحا أيها الجار العزيز .

(بابتستا) . — عم صباحا ياجروميو ، ومرحباً بكم أيها السادة

(بتروشيو) . — سيدى أعندك ابنة تدعى كاترينا جميلة صالحة .

(بابتستا) . — نعم ياسيدى لى ابنة تدعى كاترينا

(جروميو) . — ما هكذا يكون الحديث يا بتروشيو

(بتروشيو) . — أتنتقدنى يا سنيور جروميو خل عنك (إلى بابتستا) أنا ياسيدى من سادة فيرونا وقد سمعت ما أطربنى عن فضائل إبنتك وماتتحلى به من جمال وذكاء ورقة وحياء ، وما يتميز به خلقها من جميل الصفات كل هذا ياسيدى جرأنى على أن أحل ضيفاً عليك لأرى بعينى برهان ماسمعت وكتحية الضيف إلى المضيف أقدم لك هذا الموسيقى فهو من رجالى ماهر فى الموسيقى وعلى علم بالحساب ليعلم السيدة شيئا منهما وإن كنت على ثقة أنها ليست على جهل بهما . لاترفضه ياسيدى وإلا أسأت إلى ، إسمه «هورتنسيو» من مانتوا

(بابتستا) . — أهلا بك وبه من أجلك ، أما ابنتى كاترينا فأخشى ألا تروقك ولشد ما يحزننى هذا .

(بتروشيو) . — آه أرى أنك لا تقوى على فراقهـا أو أنك لا ترتاح إلى صحبتى

(بابتستا) . — لا تسيء فهمى ياسيدى فكلامى لايحمل معنى خفياً فأنا أعنى ما أقول — من السيد ومن هو ؟

(بتروشيو) . — أنا بتروشيو ابن أنتونيو رجل تعرفه كل إيطاليا

(بابتستا) . — ابن أنطونيو إنى أعرفه جيـداً وإنى أرحب بك من أجله .

(جروميو يقدم لسنشيو وقد تنكر فى ملابس الأساتذة ليعلم اللغة الإغريقية واللاتينية وغيرهما من اللغات — فيشكره بابتستا ويدعو الأساتذة إلى رؤية ابنتيه)

(بتروشيو) . — سيدى السنيور إن مسألتى عاجلة ووقتى قصير وقد عرفت والدى وعرفتنى . أنا وريث ما ترك من ثروة — ضاعفتها ولم أنقصهـا — قل لى إذا فزت برضا ابنتك فكم تهبها مهراً .

(بابتستا) . — نصف ضياعى بعـد موتى وعشرين ألفا من الجنيهات عاجلة

(بتروشيو) . — وفى نظير ذلك أورثها كل ما أملك من ثروة إذا ما مت قبلها وليكن هذا ميثاقا نتعاهد عليه منذ الآن .

(بابتستا) . — لا بل بعد أن تفوز بحبها فهذا هو كل شيء

(بتروشيو) . — هدىء من روعك يا أبتاه فهذا أمر يسير ... أنا ند لها وأكثر فإن تك متكبرة فعندى إصرار والنار لا تأكل النار ولكنهما يأكلان ما يغذيهما من هشيم وإن تكن النار تذكيها بعض الريح فإن العاصف من الرياح يأتى عليها ولا يبقى شيئا — وأنا منها كالريح العاصف من النار لا تستطيع لى دفعا — فأنا خشن الطبع لا أعمد إلى المصانعة كصبى غر . . .

(بابتستا) . — أسأل لك التوفيق ولكن خذ حذرك مما ستسمعه من قارص الكلام .

(بتروشيو) : — إنى راسخ كالطود لا تهزه الرياح مهما عصفت .

(يدخل معلم الموسيقى وقد شجت رأسه وشحب وجهه فيستفسره السيد بابتستا الأب عن سر ذلك فيخبره أن كاترينا أهوت على رأسه بالعود وهو منحن يدربها على تناوله)

(بتروشيو) . — لشد ما يزيد هذا فى تقديرى لها ويضاعف من حبى كم أود أن ابادلها الحديث .

(بابتستا) . — (إلى معلم الموسيقى) لا يذهب صبرك واحتمل فلعلها تصلح أو خلها الى اختها الصغرى فهى اكثر استعداداً للتعلم وارق حاشية — والآن يا سنيور بتروشيو أتحب ان تصحبنا او ابعث اليك بكاترينا

(بتروشيو) . — ارجو أن ترسلها وسأبقى فى انتظارها ها هنا

(يخرج الأب ومعه الباقون)

(بتروشيو) : — (لنفسه) فلأحملن عليها بقوة فإذا صغبت قلت لها ما أجمل غناء الكروان ، وإذا عبست قلت لها ما اجمل ما تبدو ورود الصباح قد بللها الندى ، وإذا اعتصمت بالصمت قلت لها ما اجمل فيض بلاغتك وإذا أمرتنى بالرحيل شكرت لها كأن طلبت إلى طول

الإقامة ، وإذا رفضت الزواج منى سألتها أن نحدد يوم الزفاف ، والآن ها هى قادمة فاجمع شجاعتك يا بتروشيو .

(تدخل كاترينا)

عمى صباحا يا كيت أليس هذا اسمك كما سمعت ؟

(كاترينا) : — سمعت ما سمعت وستسمع أشر من ذلك إسمى كاترينا لمن يناديني

(بتروشيو) : — بل تكذبين فما أنت إلا كيت ... كيت المليحة وأحيانا كيت الشقية ، وعلى أية حال كيت ... أجمل كيت فى الأرض ، سيدة من تسمى بهذا الإسم من النساء ، كيت اللذيذة ، وكل لذيذ كيت . إذن فأنت كيت ، خذى عنى هذا ، أنت سلوتى يا كيت ، ماسمعت عن رقتك التى تتحدث عنها الدنيا ، وفضائلك التى سار بحديثها الناس ، وجمالك الذى مهما بولغ فى وصفه لن يصل إلى ما أنت عليه حقاً ، كل ذلك دفعنى إلى أن أتقدم إلى خطبتك .

(كاترينا) : — دفعت ! ! فليقذفك من هنا من دفعك الينا ، لقد عرفتك مذ رأيتك فما أنت إلا متاع منقول

(بتروشيو) : — وما المتاع المنقول ؟

(كاترينا) : — واحد من تلك المقاعد

(بتروشيو) : — أصبت ـ أنا مقعد فهيا اجلسى

(كاترينا) : — مثلك يحمل الأثقال كالحمار

(بتروشيو) : — وكذلك النساء خلقن للحمل

(كاترينا) : — مثلك لا تحمله إلا أشر الدواب

(بتروشيو) : — لا تجزعى فلن أثقل عليك بحملى فأنا أعرف أنك غضة خفيفة .

(كاترينا) : — أخف من أن يلحق بى جلف مثلك ولكنى أثبت من أن يحركنى طيشك .

(بتروشيو) : — كأنك نحلة طنانة .

(كاترينا) . — نحلة طنانة وأنت صقر قبيح

(بتروشيو) . — وأنت سلحفاة بطيئة سيخطفك الصقر .

(كاترينا) . — أجعلت نفسك صقراً وجعلتنى سلحفاة

(بتروشيو) . — لا تغضبى كالزنبار

(كاترينا) . — إذا كنت زنباراً فاحذر أن تصيبك إبرتى

(بتروشيو) . — علاجك أن أنزع إبرتك

(كاترينا) . — هذا إذا استطعت أن تعرف أين هى ؟

(بتروشيو) . — ومن لا يعرف أين إبرة الزنبار إنها فى ذنبه

(كاترينا) . — بل فى لسانه

(بتروشيو) . — لسان من ؟

(كاترينا) : — فى لسانك ان هرفت فى الحديث ومع السلامة !

(بتروشيو) : — هكذا ولسانى فى أثرك — تعالى يا كيت وأنا أصفح عنك

(كاترينا) : — تصفح عنى خذ (تضربه)

(بتروشيو) : — أقسم لو عدت لضربتك

(كاترينا) : — لو فعلت ما كنت سيداً فالسيد لا يضرب سيدة أبداً .

(بتروشيو) : — أصغ إلى يا كيت لن تهزئى منى هكذا

(كاترينا) : — دعنى أذهب وإلا نالك إكثر من هذا

(بتروشيو) : — لن تغضبينى مهما فعلت فأنت وديعة كالحمامة ، كذب من قال أنك خشنة سليطة متزمتة ، أنت مرحة

لعوب، جمة الأدب، بطيئة الرد، حلوة كزهر الربيع
لا تستطيعين حتى أن تقطبي جبينك أو تنظري شذرا
أو أن تعضي شفتك غضبا كما تفعل الفتيات ولا يتملكك
الغضب فى الحديث، بل تملأين نفوس خطابك بهجة
بحديثك العذب الرقيق. كذب الواشون يقولون إنك
تعرجين فى مشيتك - إنك كغصن البان استقامة
واستواء، سمراء كالبندق، وأحلى مذاقا من ثمره -
دعيني أنظر كيف تمشين إنك لا تعرجين

(كاترينا): — إليك عنى أيها الأحمق، مر من يلوذ بك ومن
يأتمر بأمرك

(بتروشيو): — ما ازدان مكان بخطوات «ديانا» آلهة الرشاقة كما
ازدانت هذه الغرفة بمشيتك، فلتكوني أنت «ديانا»
وانتخطري امامي.

(كاترينا): — من اين لك هذه الفصاحة؟

(بتروشيو): — إنها عفو الساعة ووحي الخاطر

(كاترينا): — خاطر ذكي ورأس بليد

(بتروشيو): — او لست ذكيا؟

(كاترينا) : — بلى ، اطمأن

(بتروشيو) : — لن اطمأن إلا إلى جانبك ، والآن دعينا من كل هذا ، المسألة بصراحة ان أباك قد قبلنى زوجا لك وقد اتفقنا على المهر ، وسأكون زوجك شئتى أو لم تشائى انا زوج كفء لك ، وبحق هذا النور ألذى ارى فيه جمالك وأعشقه لتكونين زوجا لى ولن تتزوجى غيرى فأنا الرجل الذى خلق ليروضك ، وليجعل من «كيت الشرود» «كيتاً» أليفة كغيرها من بنات جنسها ، ها هو أبوك قادم لا تحاولى الرفض فأنت لى لا محالة .

ويتزوج «بتروشيو» من «كاترينا» بالرغم منها ويمضى فى تذليلها مصطنعا لها صنوفا من المعاملة تتفاوت بين الحرمان والعطاء ، والمنع والإغداق ، والشدة واللين ، والتحبب والقسوة ، يجعلها فى حيرة من أمرها ، لا تدرى أحب هو أم بغض ؟ . . عقل هو أم جنون ؟ ، ولكنها تلين على أية حال ، وقد انعدمت لديها أسباب المقاومة وتلح عليها حاجات الجسم من جوع ونوم حتى تلين قناتها فتستلم راضية وتكون فى يديه ألعوبة ، يحركها كيف شاء ، وينطقها بأى حديث ، ويحولها من حال إلى حال ، من كان يظن

أنه بالغ هذا بها . . . من كان يظن أن بتروشيو يجعل منها مثالا للزوج الصالحة الطيعة ... من كان يظن أن كاترين الشرود المتعجرفة ، المغترة بنفسها ، السليطة تتوجه بهذا النصح إلى بنات جنسها وتقيم به دستوراً بين المرأة والرجل .

(كاترين) : — زوجك سيدك ، حياتك ، حاميك ، تاج رأسك مولاك ، يهتم بأمرك ، ويرعى شأنك ، وفى سبيل مرضاتك ، يتحمل مشاق العمل فى البر والبحر ، وفى سبيل راحتك يغالب العواصف ويتعرض للزمهرير ، وأنت مستلقية فى فراشك ناعمة البال ، ولا يبتغى منك جزاء على كدحه وجهده ، إلا الحب خالصا ، والنظرة راضية ، والطاعة كاملة ، شىء قليل إلى جانب هذا كله واجب المرأة نحو زوجها ، هو واجب الرعية نحو راعيها ، فاذا ما أساءت أدبها ، وتنكرت وشقت عصا الطاعة ، فما هى إلا ثائر على مولاه خائن لعهده .

قبيح أن تبلغ بنا البساطة إلى حد أن نجاهر بالعدوان ، وأن نطالب بالسيطرة والسلطان ، حيث يجب أن نفيء إلى الطاعة وأن نجنح إلى السلم ... لم لا تكون اخلاقنا كأجسامنا خلقها الله ضعيفة رقيقة لا تقوى على جهاد الحياة ... تعالين لقد كنت مثلكن يملأ راسى الغرور ، وقلبى الكبرياء ، وعقلى الطيش ، ادفع السيئة بالسيئة ، والثورة بالثورة ، ولكنى ادركت ان سيوفنا مفلولة ، وان قوتنا ضعف ، وان ضعفنا لا يقاس به ضعف ، فدعكن من هذا الوهم ، وخلى عنكن الغرور وابسطن ايديكن لأزواجكن طاعة وخضوعا ...

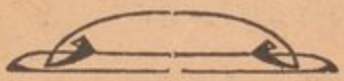

AUB LIBRARY

DATE DUE

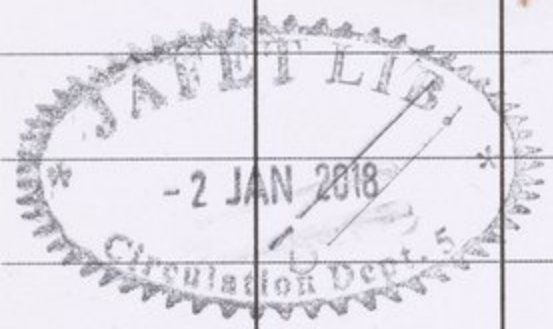

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00511327